

وأجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير أمتي الذين لم يعطوا حتى
يبطروا ولم يقتروا حتى يسألوا » . وقال أبو تمام الطائي

عندي من الأيام ما لو أنه * أضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه * فترومه شعبا اذا ما غمضا
ما عوض الصبر امرؤا لأرى * ما فاته دون الذي قد عوضا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسله لا يستغنى محمودها
عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضدادا
مقابلة يسعد هوى مطاع وشهوة غالبية فان أغفل تأديبها تفويضا إلى
العقل أو توكل على أن تنقاد إلى الاحسن بالطبع أعدمه التفويض درك
المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلا وفي صورة
الجهل داخل لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم
مواضع وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب
بالتجربة والمعاناه ويستفاد بالدربة والمعاناه ثم يكون العقل عليه فيما
وزكى الطبع إليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الأدب لكان أنبياء الله
تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين . وقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال بعثت لأتم مكارم الاخلاق . وقيل لعيسى بن مريم
على نبينا وعليه السلام من أذكك قال ما أدبني أحد وليكني رأيت جهل
الجاهل بخائبته . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ان الله تعالى
جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصالا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل

من الله تعالى بخلق منها . وقال (١) أردشيرين بابلك من فضيلة الادب أنه
 ممدوح بكل لسان ومستزين به في كل مكان وبقا ذكره على أيام الزمان
 . وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذي
 كلما علا سمكه كان أشد لو حشسته وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض
 وأعمق كان أشد لو عورته وبالارض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها
 ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع
 ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى
 الادب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع
 زهرتها ونضارتها الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها . وحكى
 الاصمعي رحمه الله تعالى أن أعرابيا قال لابنه يا بني الادب دعامة أيد الله بها
 الابواب وحليمة زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغنى وان
 صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت
 تربتها عن الماء المخرج ثمرتها . وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل
 فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر ومع
 الادب كالشجر المثمر وقيل الادب أحد المنصبين . وقال بعض البلغاء
 الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء أدبه ضاع
 نسبه ومن قل عقله ضل أصله . وقال بعض الادباء ذلك قلبك بالادب
 كما تذكي النار بالخطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجى
 راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك . وقال
 بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال
 بعض الفصحاء الادب يسترقبج النسب . وقال بعض الشعراء فيه

(١) وقع هذا الاسم فيما سبق من هذا الكتاب بالزاي المعجمة وهو خطأ والصواب كونه بالراء
 المهملة لانه مركب من كلمتين (أرد) أي غضبان و (شير) أي أسد . وأما بابل فهو تصغير باب
 على طريقة اللغة الفارسية والباب هو الامير كتبه أحمد ابراهيم

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما رَمَ المرء الا التقى * ولا حسب المرء الا النسب
وفي العلم زين لأهل الحجا * وآفة ذى الحلم طيش الغضب
وأنشد الاصمعي رحمه الله

وان يك العقل مولودا فلست أرى * ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
انى رأيتهما كالماء مختلطاً * بالترب تطهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته في موالده * غريزة العقل حاكي البهيم في الحسب
والتأديب يلزم من وجهين أحدهما ما يلزم الوالد لولده في صغره والثانى ما يلزم
الانسان في نفسه عند نشأته وكبره . فأما التأديب اللازم للاب فهو أن
يأخذ ولده بعبادى الآداب ليأمن بها وينشأ عليها فيسهل عليه قبولها
عند الكبر لا يستنساها بعبادتهم فى الصغر لأن نشأة الصغير على الشئ تجعله
متطبعاً به ومن أغفل فى الصغر كان تأديبه فى الكبر عسيراً . وقدروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما نحل والدولة نحلة أفضل من أدب
حسن يفيدناه أوجهل قبيح يكفه عنه ويعنعه منه . وقال بعض الحكماء
بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفترق الببال . وقال
بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الأحداث فى صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب

وقال آخر

ينشوا الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها ينبت الشجر
وأما الادب اللازم للانسان عند نشأته وكبره فأدبان أدب مواضعة واصطلاح

وأدب رياضة واستصلاح . فأما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ
تقليداً على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان
الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا اتفاقهم على
استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم
على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تحاوز ما اتفقوا عليه منها
صار بجانب اللادب مستوجباً للذم لأن فراق المألوف في العادة ومجانبة
ما صار متفقاً عليه بالمواضعة مفضى الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن
لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزاً في العقل أن يوضع ذلك على
غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسناً ويرون ما سواه قبيحاً فصار هذا مشاركاً لما
وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفته من حيث انه كان
جائزاً في العقل أن يوضع على خلافه . وأما أدب الرياضة والاستصلاح
فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف
العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط
ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألهمها الله
تعالى ارشادها قال الله تعالى «فألهمها فجورها وتقواها» . قال ابن عباس
رضي الله عنهما بين لهما ما تأتي من الخير وتذر من الشر وسند كرتعليل كل شيء
في موضعه فإنه أولى به وأحق

فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق الى حسن الظن
بنفسه فيخفي عنه مذموم شبيه ومساوى أخلاقه لان النفس بالشهوات أمره
وعن الرشيد زاجره . وقد قال الله تعالى ان النفس لأماراة بالسوء وقال
صلى الله عليه وسلم «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالاً»
ودعت أعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدوك الانفسك فأخذ بعض
الشعراء فقال

قلبي الى ما ضرني داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
 كيف احتراسي من عدوى اذا * كان عدوى بين أضلاعي
 فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع
 الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي
 عليه من التسوية والمكر فاز بطاعتها وانجاز عن معصيتها . وقد قال عمر بن
 الخطاب رضي الله عنه اعاجز من عجز عن سياسة نفسه . وقال بعض الحكماء
 من ساس نفسه ساد ناسه . فأما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم
 من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها
 مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يعي عن مساوئها كان
 سوء الظن بها يعي عن محاسنها ومن عي عن محاسن نفسه كان كمن عي عن
 مساوئها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا . وقد قال الجاحظ في كتاب
 البيان يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن به مقتصدا
 فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلما فأودعها ذلة المظلومين وان تجاوز
 بهما الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار
 من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل
 . وقال الاحنف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان
 لجده أهدم . وذهب قوم الى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في
 اجتهادها لان النفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف
 الا بالثمة لها لانها محبوبة تجور ادلا لا وتغر مكر افان لم يسي الظن بها
 غلب عليه جورها وتموه عليه غرورها فصارت عيسورها قانعا وبالشبهة من

أفغانها راضيا . وقد قالت الحكماء من رضى عن نفسه أسخط عليه الناس
وقال كشاجم

لم أرض عن نفسى مخافة سخطها * ورضا الفتى عن نفسه اغضاها
ولو أنى عنها رضيت لقصرت * عما تريد عن الله آدابها
وتبينت آثار ذلك فأكثر * عدلى عليه فطال فيه عتابها
وقد استحسن قول أبي تمام الطائي

ويسى بالاحسان ظنالا كن * هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لثوما بل رأوا ذلك أبلغ في
الفضل وأبعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تحب وتصور منها ما تكن
ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا
فقدم لكها بعد أن كان في ما لكها وغلبها بعد أن كان في غلبها . وقد روى
أبو حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
الشديد من غلب نفسه . وقال عون بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيما
كرهت فلا تطعها فيما أحببت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك . وقال
بعض البلغاء من قوى على نفسه تناهى في القوة ومن صبر عن شهوته بالغ
في المروة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما كنت وخبرة ما أجنبت
بتقويم عوجها واصلاح فسادها . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها
قالت يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعى
منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال أو ميل يكون عن اهمال
ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل
بعد المراعاة ذائع وسند كرم من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولا

تحتوى على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من الادب وهى
 ستة فصول متفرعة

(الفصل الاول) فى مجانبة الكبر والاعجاب لانهم ما يسلبان الفضائل
 ويكسبان الرذائل وليس لمن استولى عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب
 لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالتكبر يجعل نفسه عن
 رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأديبين فلذلك وجب
 تقديم القول فيما بابانه ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول

أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التألف ويوغر صدور الاخوان
 وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه
 وسلم لعنه العباس أنهم الكبر عن الشرك بالله والكبر فان الله يحب منهما
 وقال أردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حتى لم يدر صاحبه أين يذهب به
 فيصرفه الى الكبر وما أشبه ما قال بالحق . وحكى أن مطرف بن عبد الله
 ابن الشخير نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء
 فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما
 تعرفنى فقال بل أعرفك أولك نطفة مذره وآخره جيفة قدره وحشوك
 فيما بين ذلك بول وعذره فأخذ ابن عوف هذا الكلام فتنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مذره

وفى غد بعد حسن صورته * يصير فى اللحد جيفة قدره

وهو على تيمه ونخوته * ما بين ثوبه يحمل العذره

وقد كان المهلب أفضل من أن تجدد نفسه به هذا الجواب ولكن إزالة من
 زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فأما الحق الصريح

والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمن الخرقى وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال أندرون لم تجلس إليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكنى أردت أن أتواضع لله بالجلاوس إليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل أو ينفع فيه عدل وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوى الكمال استعانوا بالكبير ليُعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل

وأما الإعجاب فيخفى المحاسن ويظهر المساوى ويكسب المذام ويصد عن الفضائل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الإعجاب لياكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب * وقال بزرجهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه الإعجاب . وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس إلى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا إلى ما ينتهى إليه الإعجاب من الجهل غاية حتى أنه ليظفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسينة تحبط كل حسنة وبندمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد .

حكى عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغنى قتل أربعة فتقربت إليه بدما ثمهم قيل ومن هم قال مقاتل بن مسمع ولى سجنستان فأناه الناس فأعطاهم الأموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أردتهم فشى عليها وقال لرجل عياشيه لمثل هذا فليعمل العاملون . وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمي خوف أهل البصرة أمر نخطب خطبة أو جرفها فتنادى الناس من أعراض المسجد

أكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا * ومعبد بن زرارة كان ذات يوم
جالسا في طريق في رت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق الى موضع
كذا فقال يا هناء مثلى يكون من عبيد الله . وأبو شمال الاسدي أضل
راحلته فالتسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الى راحلتى
لا صليت له صلاة أبدا فالتسها الناس فوجدوها فقالوا قدر د الله راحلتك
فصل فقال ان عيني عيين مصر فانظر الى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب الى
حق صاروا به نكالا في الاولين ومثلا في الآخرين ولو تصور العجب
المتكبر ما فطر عليه من جملة و بلى به من مهنة لخفض جناح نفسه
واستبدل لينام من عتوه وسكونا من نفوره . وقال الاخنف بن قيس
عجتان جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء
الانسان فقال

يام ظهـر الكبر اعجاب بصورته * انظر خلالك فان النسب تريب
لوفكر الناس فيما في بطونهم * ما استشعر الكبر شيان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو يخمس من الاقدار مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سمك * والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب وما كول التراب غذا * أقصر فأنت مأكول ومشروب
وأحق من كان الكبر مجانبا ولا اعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره
وعظم فيها خطره لأنه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر
معها كل كبير . وقال محمد بن علي لا ينبغي للشريف أن يرى شيئا من
الدنيا لنفسه خطيرا فيكون مهانا بها . وقال ابن السماك لعيسى بن
موسى تواضعك في شرفك أشرفك من شرفك وكان يقال اسمان
متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف

والكبر أسباب فن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة
الاكفاء . وحكى أن قوما مشوا وخلف علي بن أبي طالب رضى الله عنه
فقال أبعدهوا عني خفتق نعالكم فانها مفسدة لقاوب نوكي الرجال .
ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للمتبع .
وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به للنبي صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة
فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد
وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسم الموائد الكبر وقطع الذرائع الاعجاب
وكسرا لاسراف النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك ما روى
عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس
صعد المنبر فمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال
أيها الناس لقد رأيتني أرمي على حالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة
من التمر والزبيب فأظل اليوم زأني يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف
والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال عمر رضى الله
عنه ويحك يا ابن عوف اني خلوت فحدثتني نفسي فقالت أنت أمير
المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها نفسها . وللأعجاب
أسباب فن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء الممتلقين الذين
جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتمنى خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا
في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة
الى الاستهزاء بهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا
يزكي رجلا فقال له قطعت مطاء لوسمعتها ما أفلح بعدها . وقال عمر بن

الخطاب رضى الله عنه المدح ذبح . وقال ابن المقفع قابل المدح كمدح نفسه . وقال بعض الحكماء من رضى أن يمدح بما ليس فيه فقد بدأمكن الساخر منه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إياكم والمدح فإنه الذبح إن كان أحدكم مادحا أحاه لا محالة فذا قتل أحسب ولا أركى على الله أحدا » وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يعضب . وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غرّه افراط مادحه * لا يغلبن جهل من أطراك عملك بك
أثنى وقال بلا علم أحاط به * وأنت أعلم بالمحصول من ويبسك
وهذا أمر ينبغى للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستغفرها ويمنعها
من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الشاء وسماع المدح
وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الشاء طبيعة الانسان

فاذا سآخ نفسه فى مدح الصبوه وتابعها على هذه الشهوه تشاغل بها عن الفضائل المدوحه ولها بها عن المحاسن الممنوحه فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق أوزم الامر ين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا يتخذع بها ميمز . وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الالباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته وتكمن شهمة المداح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا أنفسهم بثناء والمدح كحرز من التجاوز فيه وتذميرها عن

التملق به . وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
«لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانيين ولا متداحين ولا متماوتين» .
وحكى الأصمعي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا مدح قال اللهم
أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون
واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون . وقال بعض الشعراء
إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله * فإدحه يهذي وإن كان مفصحا
وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه إمالته وهمه أن
الناس قد غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه وإمال الخدعهم بتدليس نفسه
بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع وإمال التلذذ
بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا إذا
لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولأى ذلك كان فهو الجاهل الصريح
والتقص الفاضح . وقال بعض الشعراء

وما شرف أن يمدح المرء نفسه * ولكن أعمالا تدم وتمدح

وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل أصحاب التجارة يربح

ولا كل من ترجو لغيبك حافظا * ولا كل من ضم الوديعه يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد أخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ومرآيا
المحاسن والعيوب على ما ينهونه عليه من مساوئيه التي صرفه حسن الظن
عنها فانهم أماكن نظرا وأسلم فكريا ويجعلون ما ينهونه عليه من مساوئيه
عوضا عن تصديق المدح فيه . وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيبا أصلحه» . وكان
عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأأ أهدي الينا مساوينا . وقيل

لبعض الحكماء أتحب أن تهدي اليك عيوبك قال نعم من ناصح و مما يقارب
معنى هذا القول ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لابن عباس رضى الله
عنهما من ترى أن توليه حصص فقال رجل لا صحیحاً منك صحیحاً لك قال تكون
أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بي مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى . وقيل
فى منشور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاه . فاذا قطع أسباب الكبر
وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعاً وبالعجب تودداً وذلك من أوكد
أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى
المحبة ويثنيها عن البغض . وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال
ثلاثاً من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن
برئ من الكبر نال الكرامة . وقال مصعب بن الزبير التواضع مصاديد
الشرف . وقيل فى منشور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد
تحدث المنازل والولايات لقوم أخلاقاً مذمومة يظهرها سوء طباعهم
ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاه شيمهم لان لنقلب الاحوال سكرة
تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لاسيما اذا هجمت
من غير تدريج وطرف من غير تأهب . وقد قال بعض الحكماء فى تقلب
الاحوال تعرف جواهر الرجال . وقال الفضل بن سهل من كانت
ولايته فوق قدره تكبر ليا ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها .
وقال بعض البلغاء الناس فى الولاية رجلان رجل يجلس ليعمل بفضله
ومروءته ورجل يجلس بالعمل لنقصه ودناءته فن جلس عن عمله ازداده
تواضعاً بشراً ومن جلس بعمله لابس به تحيراً وتكبراً

﴿الفصل الثمانى فى حسن الخلق﴾ روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال

«ان الله تعالى اختار لكم الاسلام ديناً فأكرموه بحسن الخلق والسخاء» فإنه لا يكمل الا بهما . وقال الاخنف بن قيس الا أخبركم بادوية الداء قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البذي . قال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعله هذا القول ظاهرة . وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسئ الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء . وقال بعض الحكماء عاشراً هلك بأحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل . وقال بعض الشعراء

اذا لم تنسح أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد

اذا ما المرء لم يخلق لبيا * فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار» . وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المحققين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « أحبكم الى أحسنكم أخلاقاً الموطون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » . وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلاق الوجه قليل النفور طيب الحكمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال « أهل الجنة كل حين لين سهل طلق » ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدره وموضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفواً كدرأحياناً المختبري * وايس مستحسناً صفواً بلا كدر

وليس يريد بالكدر البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعب
لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض في موضع يلام فيه المساعد ويذم
فيه الموافق فاذا كانت المحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواقع مستحقة فان
تجاوزها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملقى
ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسمهم ما ودمبرور ولا اثر مشكور . وقد روى
حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شر الناس
ذو الوجهين الذي يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . وروى مكحول عن أبي
هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لذى الوجهين أن يكون
وجهيا عند الله تعالى » . وقال سعيد بن عروة لأن يكون لى نصف وجهه
ونصف لسان على ما فهم ما من قبح المنظر وعجز الخبر أحب الى من أن أكون
ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين . وقال الشاعر

خل النفاق لأهله * وعليك فالتس الطريقا

وارغب بنفسك أن ترى * الاعدوا أوصديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه * خؤن بظهر الغيب لا يتدزم

يضاحكنى عجا اذا ما لقيته * ويصدقنى منه اذا غبت أسهم

كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا * وفي غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة

وأمر طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا .

فمن أسباب ذلك الولاية التي تحدث في الاخلاق تغيرا وعلى الخلق تنكرا

لإمام من لؤم طبع وإمام من ضيق صدر . وقد قيل من قام في ولايته ذل في

عزله وقيل ذل العزل يضحك من تبه الولاية . ومنها العزل فقد يسوعبه
الخلق ويضيق به الصدر إما الشدة أسفاً أو لقله صبر . حكى حميد
الطويل أن عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال انى وجدت
حلاوة ان رضاع مرة الفطام . ومنها الغنى فقد تتغير به أخلاق الثيم بطرا
وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الريحى

غضبان يعلم أن المال ساق له * مالم يسبقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسأنى * فأكرم الناس من كانت له ورق
وقال بعض الشعراء

لئن تكن الدنيا أنالتك ثروة * فأصحت ذايسر وقد كنت ذاعسر
أقد كشف الأثراء منك خلائقا * من الأثوم كانت تحت ثوب من الفقر
وبحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر . وكتب قتيبة بن مسلم
الى الخجاج ان أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه أن اقطع عنهم الارزاق
ففعول فساعت حالتهم فاجتمعوا اليه فقالوا أقلنا فكتب الى الخجاج فيهم
فكتب اليه ان كنت أنت منهم رشد فأجر عليهم ما كنت تجرى واعلم
أن الفقر جند الله الأكبر يذل به كل جبار عنيد يتكبر . وقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا « أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ
رأسه لشيء الفقر والمرض والموت » . ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما أنفة
من ذل الاستكانة أو أسفاً على فائت الغنى . ولذلك قال النبي صلى الله
عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر » . وقال
أبو تمام الطائى

وأعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت في كنهه الفكر

فيفرح بالشيء القليل بقاءه * ويجزع مما صار وهوله زخر
وربما تسلى من هذه الحالة بالاماني وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق
الامنية ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء . وقد قال
أبو العتاهية

حرتك منالك اذا اغتمت * فت فاتهن مراوح

وقال آخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا * ان المنى رأس أموال المفاليس
ومنها الهموم التي تذهل القلب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا
تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم . وقال بعض الادباء الحزن كالداء
المحزون في فؤاد المحزون . وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة * فتا تقطع العيش الاجهم
اذا تم أمر بدانقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم
اذا كنت في نعمة فارعها * فان المعاصي تزيل النعم
وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة * فاتأكل الشهيد الابسوم
فكقدر دب في مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم
ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق
على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبي
آلة العيش صحة وسباب * فاذا وليا عن المسرء ولي
أبدت سرمد ما تهب الدنت * يا فيما ليت جودها كان بخلا
ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره في الجسد كذلك يكون تأثيره في

أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أفعال
فكذلك تعجز النفس عن أفعال ما كنت تصبر عليه من مخافة الوفاق ومضيق
الشقاق وكذلك ما ضاهاه . وقال منصور النيرى

ما كنت أوفى شبابى كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
أصحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم * تشجى لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما * أبقى حلاوة ذكراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت * الألهة نبوة عنه ومردع
قد كدت تقضى على قوت الشباب أسى * لولا بعز يك أن العمر منقطع
فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما . وههنا سبب خاص يحدث
سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن
البغض فيؤول الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا
بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

(الفصل الثالث في الحياء) اعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف
بسمات دالة كما قالت العرب في أمثالها * تخبر عن مجهوله مرآته *
وكما قال سلم بن عمرو والشاعر

لا تسأل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد من الخير

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا أن
يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا أن يكونا الى الشر سبيلا
وقد روى حسان بن عطية عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم «الحياء والعبيتان من الإيمان والبذاء والبيان شهيمتان من
النفاق» ويشبه أن يكون العبي في معنى الصمت والبيان في معنى التشدق

كجاء فى الحديث الآخر « إن أبغضكم الى الثرثارون المتفهبون
المتشدقون » . وروى أبوسلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال « الحياء من الايمان والايان فى الجنة والبذاء
من الجفاء والجفاء فى النار » وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه
لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء حياة الوجه بحيائه كما أن حياة
الغرس بحيائه . وقال بعض البلغاء العلماء يا عجبا كيف لا تستحي من
كثرة ما لا تستحي وتتقى من طول ما لا تتقى وقال صالح بن عبد القدوس
إذا قل ماء الوجه قبل حياؤه * ولا خير فى وجهه إذا قل ماؤه
حيائه فاحفظه عليك وانما * يدل على فعل الكريم حياؤه
وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محذور فهو يقدم على
ما يشاء ويأتى ما يهوى وبذلك جاء الخبر . روى شعبة عن منصور بن
ربيع عن أبى منصور البدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن
مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى يا ابن آدم إذا لم تستحي فاصنع ما
شئت » وليس هذا القول اغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء كما توهمه
بعض من جهل معانى الكلام ومواضع الخطاب وفى مثل هذا الخبر
قول الشاعر

إذا لم تخش عاقبة الليالى * ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما فى العيش خير * ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيما بخير * ويبقى العود ما بقى اللحاء

واختلف أهل العلم فى معنى هذا الخبر فقال أبو بكر بن محمد الساسى فى
أصول الفقه معنى هذا الحديث أن من لم يستحي دعاه ترك الحياء الى

أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحي المرء فان الحياء يردعه
وسمعت من يحيى عن أبي بكر الرازي من أصحاب أبي حنيفة أن المعنى فيه اذا
عرضت عليك أفعال التي هممت بفعلها فلم تستحي منها الحسنها وجمالها
فاصنع ما شئت منها فجعل الحياء حكماً على أفعاله وكلا القولين حسن والاول
أشبهه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج
الأمر لكن قد جاء الحديث بما يضاهاى القول الثاني وهو قوله صلى الله
عليه وسلم « ما أحببت أن تسمعه أذنك فأتته وما كرهت أن تسمعه
أذنك فاجتنبه » ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه
ويكون التأويل الاول في الحديث المتقدم أصح اذ ليس يلزم أن تكون
أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعاني بل اختلاف
معانيها أدخل في الحكمة وأبلغ في الفصاحة اذ لم يضاها بعضهابعضا
* واعلم أن الحياء في الانسان قد يكون من ثلاثة أوجه أحدها حيأؤه
من الله تعالى والثاني حيأؤه من الناس والثالث حيأؤه من نفسه
فأما حيأؤه من الله تعالى فيكون بامثال أو امره والكف عن زواجه .
وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « استحيوا من الله عز
وجل حق الحياء فقيل يا رسول الله فكيف نستحي من الله عز وجل حق
الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة
الحياة الدنيا وذكر الموت والبيلى فقد استحيى من الله عز وجل حق
الحياء » وهذا الحديث من أبلغ الوصايا . وقال أبو الحسن الماوردي
مصنف الكتاب رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة
فقلت يا رسول الله أوصني فقال استحي من الله عز وجل حق الحياء ثم

قال تغير الناس قلت وكيف ذلك يا رسول الله قال كنت أنظر الى الصبي فأرى من وجهه البشر والحياء وأنا أنظر اليه اليوم فلا أرى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها وأذهلتني السرور عن حفظها ووددت لو أنى حفظتها فلم يبدأ بشئ صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبي لأن ما يأتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع أذارها وقطع أعذارها وواصل تأديتها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجه ونصيبا من أوامره أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق . وقد روى أن علقمة بن علاثة قال يا رسول الله عظني فقال النبي صلى الله عليه وسلم « استحي من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك » وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « قلة الحياء كفر » يعنى من الله لما فيه من مخالفة أوامره وقال صلى الله عليه وسلم « الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشئ تبدد ما فيه وتفرق »

وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تقوى الله اتقاء الناس » . وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لا خير فيمن لا يستحي من الناس . وقال بشار بن برد

ولقد أصرف الفؤاد عن الشئ * عحياء وجهه فى السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى * ذا كرا فى غد حديث الأعادى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروعة وحب الشاء ولذلك قال
صلى الله عليه وسلم « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » يعنى والله أعلم
لثقله مروءته وظهور شهوته . وروى الحسن عن أبي هريرة قال قال
صلى الله عليه وسلم « ان مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه
والفه وجليسه » . وقال بعض الشعراء

ورب قبحة ما حال بيني * وبين ركبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجهها وقاها * تغلب في الأمور كإيشاء

وقال آخر

اذالم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستحي مخلوقا فاشئت فاصنع
وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلووات . وقال بعض
الحكماء ليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك .
وقال بعض الأدباء من عمل في السر عملا يستحي منه في العلانية فليس
لنفسه عنده قدر . ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجيبهم وقال اني
دخلت البارحة في الاربعين وأنا أستحي من سنى . وقال بعض الشعراء
فسرى كاعلاني وتلك خليقتي * وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا
وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فتقى
كل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير
وانتفت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا .
وقال بعض الشعراء

وإني ليتنبى عن الجهل والحنأ * وعن شتم ذى القربى خلأق أربع
حياء واسلام وتقوى وأنى * كريم ومشلى من يضرو ينفع

وان أخل بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكاله . وقد قال الرياشى يقال ان أبابكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون أخرى قد سئمت لها * جعلتها لتي أخفيت عنى وأنا
وإني لأرى من لحياءه * ولا أمانة وسط القوم عريانا
(الفصل الرابع فى الحلم والغضب) روى محمد بن حارث الهلالى أن
جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انى أتيتك بمكارم
الأخلاق فى الدنيا والآخرة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين . وروى سفيان بن عيينة أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت
هذه الآية قال « يا جبريل ما هذا قال لأدرى حتى أسأل العالم ثم
عاد جبريل وقال يا محمد ان ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من
حرمك وتعفو عن ظلمك » . وروى هشام عن الحسن أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ذمضم كان اذا خرج من
منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك » . وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان الله يحب الخليم الحبي وببغض الفاحش
البنذى » وقال عليه الصلاة والسلام « من حلم ساد ومن تفهم ازداد »
وقال بعض الأدباء من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم . وقال
بعض البلغاء ما ذب عن الأعراض كالصفيح والاعراض . وقال بعض
الشعراء

أحب مكارم الاخلاق جهدى * وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفيح عن سباب الناس حلما * وشر الناس من هموى السبابا

ومـن هـاب الرجال تـهيبـوه * ومن حـقـر الرجال فـلـسـن يـهابـا
فـالـحـلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوى الألباب لما فيه من سلامة
العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد . وقد قال علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه أول عوض الحلم عن حبله أن الناس أنصاره . وحد
الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب
وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة . أحدها الرجعة للجهال
وذلك من خير يوافق رقة . وقد قيل في منشور الحكم من أوكد أسباب
الحلم رجعة الجهال . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل أسمعه كلاما
يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع للصلح موضعا فاننا لا نكافئ من عصى الله فينا
بأكثر من أن تطيع الله عز وجل فيه . وشتم رجل الشعبي فقال ان كنت
كما قلت فغفر الله لي وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك . واغتاتت عائشة
رضي الله عنها على خادم لها فخرجت الى نفسها فقالت لله در التقوى ما
تركت لذي غيظ شفاء . وقسم معاوية رضي الله عنه قطافا فأعطى شيخا
من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف أن يضرب به رأس معاوية فأناه
فأخبره فقال له معاوية أوف بنـذرك وليرفق الشيخ بالشيخ . والثاني
من أسباب القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة .
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اذا قدرت على عدوك
فاجعل العفو شكري للقدرة عليه » . وقال بعض الحكماء ليس من
الكرم عقوبة من لا يجدا امتناعا من السطوة . وقال بعض البلغاء أحسن
المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر . والثالث من أسباب الترفع عن
السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس

أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم . وقد قيل ان الله تعالى سبي يحيى
عليه السلام سيدا لحلمه . وقد قال الشاعر

لا يبلغ المجد أقوام وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا الأقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لا صفيح ذل ولكن صفيح أحلام
والرابع من أسبابه الاستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب
كما حكى عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق جلس يوما لعطاء الجند وأمر
مناديه فنسأدى أين عمرو بن جرموز وهو الذى قتل أباه الزبير فقيل له أيها
الاميرانه قد تباعدت في الارض فقال أو يظن الجاهل أنى أقيدته بأبي عبد الله
فليظهر أمانا ليأخذ عطاءه موفرا فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر ومثل
ذلك قول بعض الزعماء في شعره

أو كلما طن الذباب طردته * ان الذباب اذن على كريم

وأكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابي
الاهواني عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجابتك لو لمك منجى الذباب * حتمه مقاديره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هيرة فأعرض عنه فقال له الرجل اياك أعنى فقال له
وعندك أعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فأنت طليق عرضك لانه * عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن علي

اذا نطق السفينه فلا تجيبه * فخير من اجابته السكوت

سكت عن السفينه فظن أنى * عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروعة . وقد قال بعض الحكماء احتمال السفه خير من التحلي بصورته والاعضاء عن الجاهل خير من مشا كاته . وقال بعض الأدباء ما أفضح حلبيم ولا أوحش كريم . وقال لقيط بن زرار

وقل لبني سعد فالي ومالكم * ترقون مني ما استطعت وأعتق
أغر كموأني بأحسن شيمة * بصير وأني بالفـواحش أخرج
وان تك قد سايبنتي فقهرتني * هنيئاً مريئاً أت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر إن فلانا و فلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهم ما فقال هم ابعد العقوبة أعذرتني تنقصي وثلي فكان هذا تفضلاً منه وتألفاً . وقد حكى عن الاحنف بن قيس أنه قال ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بما حدى ثلاث خصال أن كان أعلى مني عرفت له قدره وان كان دوني رفعت قدرى عنه وان كان نظيرى تفضلت عليه فأخذته الخليل فنظمه شعراً فقال

سألزم نفسي الصفيح عن كل مذنب * وإن كثرت منه الى الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف وممثل مقاوم
فأما الذي فوقى فأعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فأحلم دائماً * أصون به عرضي وان لام لأثم
وأما الذي مثلي فان زل أو هفنا * تفضلت ان الفضل بالفخر كما
والسابع من أسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكى أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت واحدة لسمعت

عشرا فقال له ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة وحكى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهرى من أحق الناس قال من ظن أنه أعقل الناس قال صدقت فمن أعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال . وقال الشعبي ما أدركت أمي فأبرها ولكن لأسب أحدا فيسبها . وقال بعض الحكماء في أعراضك صون أعراضك . وقال بعض الشعراء

وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذى * وفي الخرق اغراء فلا تترك أخرقا
فتندم إذ لا ينفع عنك ندامة * كأندم المغبون لما تفرقا
وقال آخر

قل ما بدالك من زور ومن كذب * حلى أصم وأذنى غير صماء
والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من
ضعف النفس وربما أوجبته الرأى واقتضاه الحزم . وقد قيل في منشور
الحكم الحلم حجاب الآفات . وقال الشاعر

ارفق إذا خفت من ذى هفوة خرقا * ليس الخليم كمن في أمره خرق
والتاسع من أسبابه الرعاية ليدسافة وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء
وحسن العهد وقد قيل في منشور الحكم أكرم الشيم أرهاها للذم .
وقال الشاعر

إن الوفاء على الذكر يم فريضة * واللؤم مقرؤن بذى الاخلاف
وترى الذكر يم إن يعاشر منصفا * وترى الشيم مجانب الانصاف
والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء
وقد قيل في منشور الحكم من ظهر غضبه قل كيدته . وقال بعض

الأدباء غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله . وقال بعض
الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جوابا وأوجعته عقابا .
وقال اياس بن قتادة

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا * ونشتم بالافعال لا بالتكلم
وقال بعض الشعراء

واللطف عن شتم اللئيم تكرما * أضمره من شتمه حين يشتم
فهذه عشرة أسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب أفضل من بعض
وليس اذا كان بعض أسبابه مفضولا ما يقتضى أن تكون نتيجته من الحلم
مذمومة وانما الاولى بالانسان أن يدعو للحلم أفضل أسبابه وان كان الحلم
كاه فضلا وان عرأ عن أحد هذه الاسباب كان ذللا ولم يكن حلما لأننا
قد ذكرنا في حد الحلم أنه ضبط النفس عند هيجان الغضب فاذا فقد الغضب
لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية . وقد قالت
الحكماء ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة
والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب . وقال الشاعر
ليست الاخلام في حال الرضا * انما الاخلام في حال الغضب
وقال آخر

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه * لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب
وأشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولا خير في حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمي صغره أن يكذرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له * حلیم اذا ما أورد الأمر أصدرا
فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة

حتى استوت حالتها قبل الاغضب وبعده فقد عدم من فضائل النفس
الشجاعة والانفة والحمة والغيرة والدفاع والاخذ بالثار لانهما خصال
مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقي فضائله في
النفوس موضع ولا لوفور حلمه في القلوب موقع . وقد قال المنصور
اذا كان الحلم مفسدة كان العفو مجهزة . وقال بعض الحكماء العفو
يفسد من التميم بقدر اصلاحه من الكريم . وقال عمرو بن العاص
أكرموا سفهاءكم فانهم يقولونكم العار والسنار . وقال مصعب بن الزبير
ما قل سفهاء قوم الا ذلوا . وقال أبو تمام الطائي

والحرب تركب رأسها في مشهد * عدل السفية به بألف حلیم
وليس هذا القول اغراء بتحكيم الغضب والانقياد اليه عند حدوث ما يغضب
فيمكسب بالانقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يكسبه عدم الغضب من
الفضائل ولكن اذا تار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه
وأطفأ نأرتة بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره ولا يعدم مـىء مكافئاً
كما ان يعدم محسن مجازياً . والعرب تقول دخل بيتنا ما خرج منه أى
ان خرج منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر . وأنشد ابن
دريد عن أبي حاتم

اذا أمن الجهال جهلك مرة * فعرضك للجهال غنم من الغنم
فعم عليه الحلم والجهل والقه * عنزة بين العداوة والسلام
اذا أنت جاريت السفية كما جرى * فأنت سفية مثله غير ذى حلم
ولا تعضين عرض السفية وداره * بحلم فان أعياء عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة * ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم

فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن * عليه بجهال فذالك من العزم
وهذه من أحكم أبيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما
يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من مقارنته ولا سبيل الى اطراحه ومشاركته
لما الخوف شره أو اللزوم أمره فأما من أمكن اطراحه ولم يضر ابعاده
فالهوان به أولى والاعراض عنه أصوب فاذا كان على ما وصفت استغاد
بتحريك الغضب فضائله وأمن بكف نفسه عن الانقياد له ذائله وصار
الحلم مدبر الا أمور الغضبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه
زيادة بفقد الحلم ولو عذب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه
الصواب فيه وضعف رأيه عن خيرة أسبابه ودواعيه حتى يصير بليد
الرأى مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الخيلة مع
ما يناله من أثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير أضر عليه مما غضبه .
وقد قال بعض الحكماء من كثر شططه كثر غلظه . وروى أن سلمان قال
لعلى رضي الله عنه ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل قال أن
لا تغضب . وقال بعض السلف أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز
وجل اذا غضب . وقال بعض البلغاء من رد غضبه هد من أغضبه .
وقال بعض الأدباء ما هيح جاشك كغيط أجاشك . وقال رجل لبعض
الحكماء عطفى قال لا تغضب فينبغى لذي اللب السوى والحزم القوى أن
يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدّها ويقابل عوادى شرته بحزمه فيردّها
ليحظى بانجلاء الخيرة ويسعد بحميد العاقبة . وقال بعض الأدباء فى
اغضائك راحة أعضائك وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن
دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك

من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله
فبذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكون الحزن وصار
الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض
والاستقام لكونه ولذلك أفضى الحزن إلى الموت ولم يفض اليه الغضب
فهذا فرق ما بين الحزن والغضب

واعلم أن لتسكين الغضب اذا هجم أسبابا يستعان بها على الحلم . منها أن يذكر
الله عز وجل فيدعو ذلك الى الخوف منه ويهتبه الخوف منه على الطاعة
فيرجع الى أدبه ويأخذ بنديه فعند ذلك يزول الغضب . قال الله تعالى
« واذكرك ربك اذا نسيت » قال عكرمة يعنى اذا غضبت وقال الله تعالى
« وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » ومعنى قوله ينزغك أى
يفضبك فاستعذ بالله انه هو السميع العليم يعنى انه سميع بجهل من جهل
عليه عما يذهب عنك الغضب وذكرك أن فى التوراة مكتوبا يا ابن آدم اذكرنى
حين تغضب اذكرك حين أغضب فلا أحقق فمن أحقق . وحكى أن
بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزيره وقال اذا غضبت فناولنيه
وكان فيه مالك والغضب انما أنت بشر ارحم من فى الأرض برحمتك من
فى السماء . وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى
ظلم عباد الله . وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد يا أمير
المؤمنين أسألك بالذى أنت بين يديه أذل منى بين يديك وبالذى هو أقدرة على
عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفأ عنه لما ذكره قدرة الله تعالى .

وروى أن رجلا سكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطاع
فى القبور واعتبر بالنشور وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى

عنده مفاتيح تترب الملوكة فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضي الله عنه
من أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير . ومنها أن ينتقل عن
الحالة التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الأحوال
والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المأمون اذا غضب أو شتم
وكانت الغرس تقول اذا غضب القائم فاجلس واذا غضب الجالس فليقم
. ومنها أن يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومنمة الانتقام .
وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفلك دما وأخرى منك
تحققن دما وان نفاذا أمرك مع كلامك فاحترس في غضبك من قولك
أن تخطئ ومن لوندك أن يتغير ومن جسدك أن يحف فان الملوكة تعاقب
قدرة وتعفو حلما . وقال بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى
من تملك لؤم . وقال بعض الأدباء إيالة وعزة الغضب فانها تنفضي الى
ذل العذر . وقال بعض الشعراء

واذا ما اعترتك في الغضب العزة فاذا كرت ذلل الاعتذار

ومنها أن يذكروا ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة
في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال ينادى مناد يوم القيامة من له أجر على الله عز
وجل فليقم فبم يوم العافون عن الناس ثم تلا « فمن عفا وأصلح فأجره على
الله » . وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث
إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو . وقد
روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الخير ثلاث خصال فمن كن فيه
فقد استكمل الإيمان من اذارضى لم يدخله رضاه في باطل واذا غضب

لم يخرج به غضبه من حق واذا قدر عفا . وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز
كلاما فقال عمر أردت أن يستغفرني الشيطان لعزة السلطان فأنا لمنك
اليوم ما تناله منى غدا انصرف رجلك الله . ومنها أن يذكر انعطاف القلوب
عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاءة ذلك بتنفير الناس عنه وبعدهم
منه فيكف عن متابعة الغضب فيرغب في التألف وجميل الثناء . وروى
ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما ازداد أحد يعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله . وقال بعض البلغاء
ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم .
وقال السامون لابراهيم بن المهدي اني شاورت في أمرك فأشاروا على
بقتلك الا انى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك
فقال يا أمير المؤمنين ان المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة الا أنك
أبيت أن تطلب النصر الامن حيث ما عودته من العفو فان عاقبتك فلك
نظير وان عفوت فلا نظيرك وأنشأ يقول

البري منك وطالعذر عندك لى * فيما فعلت فلم تعدل ولم تلم
وقام علمك لى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير منهم
لئن جحدتك معروفا مننت به * انى لى الموم أخطا منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطوان سطوت به * فلا عدمتك من عاف ومننتم

(الفصل الخامس فى الصدق والكذب) قال الله تعالى وهو أصدق
القائلين « ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » وقال تعالى « انما
يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » . وروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال للحسن بن على رضى الله عنهما « دع ما يربك الى

مالا يريدك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة» . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « رحم الله امرأً أصلح من لسانه وأقصر من عنانه وألزم طريق الحق مقوله ولم يعودا خطل مفصله » . وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جباناً قال نعم قيل أفىكون بخيلاً قال نعم قيل أفىكون كذاباً قال لا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى « ولا تلبسوا الحق بالباطل » أى لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقيل فى منشور الحكم الكذاب لص لأن اللص يسرق مالا والكذاب يسرق عقلاً . وقال بعض الحكماء الحرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة . وقال بعض البلغاء الصادق مصون جليل والكاذب مهان ذليل . وقال بعض الأدباء لاسيف كالحق ولا عون كالصدق . وقال بعض الشعراء

وما شئ إذا فكرت فيه * بأذهب للمروءة والجمال

من الكذب الذى لا خيره فيه * وأبعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لأنه ينتج التهمة والتهمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول الى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلية فالصدق هو الاخبار عن الشئ على ما هو عليه والكذب هو الاخبار عن الشئ بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما ادواع فدواعى الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك

جاز أن تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجوز أن تستفيض
 الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو لاتفاق
 الدواعى فدواعى الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا نقلوا
 خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطأة وقع في النفس صدقه لان
 الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس في الدواعى النافعة ممكن ولا يجوز أن يتفق
 العدد الكثير الذى لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لأن
 الدواعى اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس في جارى العادة أن يتفق الجمع
 الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز
 اتفاق دواعهم ولم يجوز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعهم واذا
 كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ما نسخ به الخاطر من دواعهم ما
 أما دواعى الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبج الكذب لاسيما اذا لم يجلب
 نفعا ولم يدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسنا ويمنع من
 اتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسنا من مبالغات الشعراء حتى صار
 كذبا صراحا استحسانا للكذب في العقل كالذى أنشدنيه الازدى لبعض
 الشعراء

توهمه فكري فأصبح خده * وفيه مكان الوهم من فكري أثر
 وصاحفه كني فألم كفه * فن لمس كني في أنامله عقر
 ومن بقاى خاطر الجرحنه * ولم أر شيأ قط يجرحه الفكر

وكقول العباس بن الأحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطي * انيها لم تجنبت الجليلا
 فقلت لها فحلت فصار خطي * مساعدا لكاتبه نجيبا

لأنه خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وان شواهد الحال تخرجه عن تلبس الكذب فلذلك استحسن في الصنعة ولم يستقيم في العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه . ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز أن يرد بارخاص ما حظره العقل بل جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لأن الشرع ورد بحظر الكذب وان جرّ نفعاً أو دفع ضرراً والعقل انما يحظر ما لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً . ومنها المروعة فانها مانعة من الكذب باعتبارها على الصدق لانها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فأولى من فعل ما كان مستقبحا . ومنها حب الاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم . وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى الحق ومنزعتك الى الصدق فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين . وقال بعض الشعراء

عود لسانك قول الصدق تحظبه * ان اللسان لما عودت معتمدا

موكلا بتقاضى ما سننت له * في الخير والشرف انظر كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر فيرى أن الكذب أسلم وأغنى فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل وأقرب لما يخاف لأن القبيح لا يكون حسنا والشمر لا يصير خيرا وليس يجتنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « تحترأ والصدق وان رأيتم أن فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رأيتم أن فيه النجاة فان فيه الهلكة » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن يضعني الصدق وقلما

يضع أحب الي من أن يرفعني الكذب وقبلما يفعل . وقال بعض الحكماء
الصدق منحيك وان خفته والكذب مرديك وان أمنت . وقال الجاحظ
الصدق والوفاء تويمان وانصبر واخلم تويمان فبين تمام كل دين وصلاح
كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد . ومنها أن يؤثر أن
يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا
يستظرف فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة ولا طرائفه معجزة
وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة .
وقد قال الجاحظ لم يكذب أحد قط الا اصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن
المقفع لا تتهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق .
ومنها أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه فيسمه بقبايح يخترعها عليه
ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى أن معرفته بالكذب غنم وأن ارسالها
في العدو سبهم وهم وهذا أسوأ حالا من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين
الكذب المعر والشتم المضر ولذلك ورد الشرع برده شهادة العدو على عدوه
ومنها أن تكون واعى الكذب قدر ادقت عليه حتى ألفها فصار الكذب له
عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبته الكذب عسر عليه لأن
العادة طبع ثاب . وقد قالت الحكماء من استحلى رضاع الكذب عسر
قطامه . وقيل في منشور الحكم لا يلزم الكذاب شي الا غلب عليه
واعلم أن الكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فمنها أنك اذا لقنته الحديث
تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده . ومنها أنك اذا
شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه
ومنها أنك اذا رددت عليه قوله حصر وارتيك ولم يكن عنده نصره المحتجين

ولابرهان الصادقين ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ان الكذاب كالسراب . ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه أمور لا يمكن للانسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتهما ولذلك قالت الحكماء العيون انهم من اللسان . وقال بعض البلغاء الوجوه مرابا تريك أسرار البرايا . وقال بعض الشعراء تريك أعينهم ما في صدورهم * إن العيون تؤدى سرها للنظر وإذا اتسم بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه فيجمع بين معزة الكذب منه ومضرة الكذب عليه . وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه

فإذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت إليه

ثم انه ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقده حديث مصدق ولا كذب مستنكر . وقد قال الشاعر

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكذب * يصدق في شيء وان كان صادقاً

ومن آفة الكذاب نسيان كتبه * وتلقاه إذا حفظ إذا كان حاذقاً

وقد وردت السنة بارخاص الكذب في الحرب واصلاح ذات اليمين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فان السنة لا ترد بإباحة الكذب لما فيه من التنفير وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال من ماء فوزي عن الاخبار بنسبه بأمر محتمل فظن السائل أنه عن القبيحة المنسوبة إلى ذلك وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من

فأكهة النساء . وقال رجل لابن سيرين رحمه الله انى اغتبتك فاجعلنى
 فى حل فقال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك . وقال ابن السمال
 لاتعن الناس على عيبك بسوء غيبك . وقال الشاعر
 لاتلمس من مساوى الناس ما ستروا * فهتك الله ستر عن مساويك
 واذ كرمحامن ما فهم اذا ذكروا * ولا تعب أحد منهم بما فىك
 ورجع اعذر المغتاب نفسه بأنه يقول حقا ويعلم فسقا ويستشهد بما روى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام
 الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه » فبعد من الصواب ويجانب الأدب
 لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك ستره كانه بصونه أولى وجاهر من أسر
 وأخفى ورجع ادع المغتاب ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان
 يضمه فلم يفده ذلك الا فساد أخلاقه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره .
 وقد قيل لأنوشروان ما الذى لا خير فيه قال ما ضرتنى ولم ينفع غيرى أو ضر
 غيرى ولم ينفعنى فلا أعلم فيه خيرا . وقيل فى منشور الحكم لا تبدمن
 العيوب ما ستره علام الغيوب . وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه
 عن أبي هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال « هى
 أن تقول لأخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبتته وان كنت كاذبا فقد
 بهته » . وقال عبد الرحمن بن زيد فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا
 لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » انه استهزاء المسلم عن أعلن
 بفسقه . ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم مستفتية فلما خرجت
 قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ما أقصرها فقال مهلا إياك والغيبة
 فقالت يا رسول الله انما قلت ما فيها قال أجل ولو لاذك لكان بهتاناً .

وسئل بعض الادياء عن صفة اللثيم فقال اللثيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب فاما الخبر فمحمول على الانكار لأفعال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهى عن منكر وفرق بين انكار الجاهر وغيبة المسائر . واما التيممة فهي أن تجتمع الى مذمة الغيبة رداة وشرا وتضم الى لثومها دناة وتعدرا ثم توول الى تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين . وروى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤون بالتيممة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب » . وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملعون ذوالوجهين ملعون ذواللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان » الشغار المحترش بين الناس يلقي بينهم العداوة والقتات النمام وقيل النمام الذى يكون مع القوم يتحدثون فيهم حديثهم والقتات هو الذى يسمع عليهم وهم لا يعلمون فيهم حديثهم والمنان هو الذى يصنع الخير ويمن به . وقيل فى منشور الحكم التيممة سيف قاتل . وقال بعض الادياء لم يمش ماش شرمن واش . فأما السعاية فهي شر الثلاثة لانها تجتمع الى مذمة الغيبة ولثوم التيممة التغرير بالنفوس والاموال والقدرح فى المنازل والاحوال * وروى ابن قتيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع » الديوث هو الذى يجتمع بين الرجال والنساء سمي بذلك لانه يديث بينهم والقلاع هو الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء سمي بذلك لانه يأتى الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه . وقال بعض الحكماء الساعى بين منزلتين

قبحتين إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة وإما أن يكون قد كذب
 نخالف المروءة . وقال بعض الحكماء الصدق يزين كل أحد إلا السعأة
 وإن الساعي أذم وآثم ما يكون إذا صدق . وقال بعض البلغاء النيمة دناءة
 والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب
 أهلهما . ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعي إليه نحن نرى قبول
 السعاية شرانها لأن السعاية دلالة والقبول اجازة فأتقوا الساعي فإنه
 إن كان في سعائته صادقاً كان في صدقه آثماً إذ لم يحفظ الحرمه ويستتر
 العورة . وقال الاسكندر لرجل سعي إليه برجل أتجيب أن نقبل منك ما
 تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف
 عنك الشر . وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام
 إن في بلدك ساعياً ولست أخبرك وهو في أرضك فقال يا رب دلني عليه حتى
 أخرجه فقال يا موسى أكره النيمة وآثم

﴿ الفصل السادس في الحسد والمنافسة ﴾ اعلم أن الحسد خلق ذميم
 مع اضراره بالبدن وإفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال
 تعالى « ومن شر حاسد إذا حسد » وناهيك بحال ذلك ثمرا . وروى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « دب اليكم داء الأثم قبلكم البغضاء
 والحسد هي الحالقة حالقة الدين لخالقة الشعر والذي نفس محمد بيده
 لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم أفسوا السلام
 بينكم » فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وأن التحابب ينقيه وأن
 السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذن نافيا للحسد وقد جاء كتاب الله
 تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى « ادفع بالتي هي أحسن فاذا

الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » قال مجاهد معناه اذفع بالسلام
اساعة المسيء . وقال الشاعر

قد يلبث الناس حيناليس بينهم * ودفيرزعه التسليم واللفظ

وقال بعض السلف الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء يعنى حسد
ابليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به فى الارض يعنى حسد ابن
آدم لأخيه حتى قتله . وقال بعض الحكماء من رضى بقضاء الله تعالى لم
يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء الناس
حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود . وقال بعض الأدباء ما رأيت ظالما
أشبه عطلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم . فأخذ بعض
الشعراء فقال

ان الحسود الظلوم فى كرب * يخاله من براه مظالموما

ذا نفس دائم على نفس * يظهر منهما ما كان مكتوما

ولولم يكن من ذم الحسد الا أنه خلق دنىء يتوجه نحو الألفاء والأقارب
ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت التزاوة عنه كرما والسلامة منه
مغنىا فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما أفضى بصاحبه
الى التلف من غير نكايه فى عدو ولا ضرار بحسود . وقد قال معاوية
رضى الله عنه ليس فى خصال الشر أعدل من الحسديه قتل الحاسد قبل أن
يصل الى المحسود . وقال بعض الحكماء يكفئك من الحاسد أنه يعتم فى
وقت سرورك . وقيل فى منشور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه .
وقال الأصمعى قلت لأعرابي ما أطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت .
وقال رجل لشر يح القاضى انى لأحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم

ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرتني . وقال
عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى

اصبر على كيد الحسو * دفان صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تأكله

وحقيقة الحسد شدة الأذى على الخيرات تكون للناس الأفاضل وهو غير
المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس
الامر على ما ظنوا لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير ادخال ضرر
عليهم والحسد مصروف الى الضرر لأن غايته أن يعدم الأفاضل فضلهم
من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة إذن
فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتداء بأخبار الأفاضل
وقدر وى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد
وقال الشاعر

نفس على الخيرات أهل العلا * فانما الدنيا بأحاديث
كل امرئ في شأنه كادح * فوارث منهم وموروث

واعلم أن دواعي الحسد ثلاثة . أحدها بغض المحسود فيأسى عليه بغضه
تظهوراً ومنقبة تشكر فيشير حسداً قد حامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاماً
وان كان أضره لأنه ليس يبغض كل الناس . والثاني أن يظهر من المحسود
فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيشير ذلك حسداً لولاه لكف
عنه وهذا أوسطها لأنه لا يحسد إلا كفاء من دنا وانما يختص بحسد من
علا وقد يعتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنهما مع عجز فلذلك صارت
حسداً . والثالث أن يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست

ففيها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل في آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لثيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريب يسهل منها ما استصعب ويحجب منها ما أتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلق غيره أنه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق . قال أبو تمام الطائي

فلم أجدا الأخلق الا تخلقنا * ولم أجدا الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستعجب به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجته مساويه فيذلل نفسه أنفة ويظهرها حمية فتدعن لرشدها وتجبب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس الأبية والهمة العلمية وان كان ذو الهمة يجبل عن دناءة الحسد . وقد قال الشاعر

أبى له نفيان نفس زكية * ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها أن يستدفع ضرره ويتوقى أثره ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ ومن الحسد أبعده فيستعمل الحزم في دفع ما كده وأكده ليكون أضيبي نفسا وأهنأ عينيا . وقد قيل العجب لعقولة الحساد عن سلامة الاجساد . وقد قال الشاعر

بصير بأعقاب الأمور كأنما * يرى بصواب الرأي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم إما على نفسه من عداوة أو على عرضه من ملامة فيمتألفهم بعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا أجدى نفعا وأخلص وذا وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

داوى بجوى بجوى وليس بحازم * من يستكف النار بالخلفاء

وقال المؤمل بن أميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم * انى اليكم وان أيسرت مفتقر
ومنها أن يساعد القضاء ويستسلم للقدر ولا يرى أن يغالب قضاء الله
فيرجع مغلوبا ولا أن يعارضه في أمره فيرتحروا وما سألوا . وقد قال
أردشير بن بابك اذا لم يساعدا القضاء ساعدا . وقال محمود الوراق

قدر الله كائن * حين يقضى وروده
قد مضى فيك علمه * وانتهى ما يريد
وأخوالحزم حزمه * ليس مما يزيد
فأرد ما يكون ان * لم يكن ما تريد

فان أظفرتة السعادة بأحد هذه الأسباب وهدته المرشد الى استعمال
الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا
واعراض من الذم جدا فان استرأ نفسه عن مذمة وصرفها عن لأمة
فهو وأظهر حزمه وأقوى عزما بمن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها
ولذلك قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه خياركم كل مفتن تواب وان
صدته الشهوة عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع
اللييم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كده فقدياء
بأربع مذام . احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجسد
لحسرتة انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء . وقال ابن المعتز الحسد داء
الجسد . والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس
عنه ونفورهم منه . وقد قيل فى منشور الحكم الحسد لا يسود .

والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا
 فيصير بالعداوة ماثورا وبالقت من جورا ولذلك قال النبي صلى الله عليه
 وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه . والرابعة اسخط الله تعالى
 في معارضته واجتناء الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا
 لنعمه من الناس أهلا . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الحسديا كل
 الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاط على
 من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده واذا بلى الانسان عن هذه
 حاله من حساد النعم وأعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوفى مصارع
 كيدته وتحرز من غوائل حسده وأبعد عن ملابسته وادنائته لعضل دائه
 واعواز دوائه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها . وقال بعض
 الحكماء من ضرب بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام .
 وقال عبد الحميد أسد تقاربه خير من حسود تراقبه . وقال محمود الوراق

أعطيت كل الناس من نفسي الرضا * الا الحسود فانه أعيانى
 ما نلى ذنبا اليه علمته * الا تطاهر نعمة الرحمن
 وأبى فإيرضيه الا ذلتى * وذهب أموالى وقطع لسانى

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا يسلم أحد منهم
 الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا طمنت فلا تحقق
 واذا حسدت فلا تبغ

(فصل) - وأما آداب المواضعة والاصطلاح فضر بيان أحدهما ما تكون
 المواضعة في فروعه والعقل موجب لأصوله والثانى ما تكون المواضعة في
 فروعه وأصوله وذلك متضح في الفصول التى نذكرها اذا سبرت وهى ثمانية

﴿ الفصل الأول فى الكلام والصمت ﴾ اعلم أن الكلام ترجحان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بواده ولا يقدر على ردشوارده . فحق على العاقل أن يحتزم من زلله بالامسالة عنه أو بالاقبال منه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله من قال خير افغتم أو سكت فسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لعائذيا معاذ أنت سالم ما سكت فاذا تكلمت فعليك أولئك . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل . وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعدد حكيميا جاهلا كنت أو عالما . وقال بعض الأدباء سعد من لسانه صموت وكلامه صوت . وقال بعض العلماء من أعوز ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم إلا الحاجة أو الحاجة ولا يفكر إلا فى عاقبته أو فى آخرته . وقال بعض البلغاء الزم الصمت فإنه يكسبك صفوا المحبة ويؤمنك سوء المعبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيلك مؤنة الاعتذار . وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك إلا عن حق توخجه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها . وقال الشاعر

رأيت العز فى أنب وعقل * وفى الجهل المثانة وانهاون

وما حسن الرجال لهم بحسن * إذا لم يسعد الحسن البيان

كنى بالمرء عيبا أن تراه * له وجهه وليس له لسان

واعلم أن الكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل إلا بها ولا يعرى من النقص إلا بعد أن يستوفىها وهى أربعة . فالشرط الأول أن يكون الكلام بلا داع يدعو إليه إما فى اجتلاب نفع أو دفع ضرر . والشرط الثانى أن يأتيه فى موضعه ويتوخى به اصابه فرصته . والشرط الثالث أن يقتصر منه

على قدر حاجته . والشرط الرابع أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به . فهذه أربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبي عن لزومه . فأما الشرط الأول وهو الداعي إلى الكلام فلأن ما الادعى له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سأل نفسه في الكلام اذا عت ولم يراع صحة دواعيه واصابه معانيه كان قوله مردولا ورأيه معلولا كالذي حكى ابن عائشة أن شابا كان يجالس الأحنف ويظيل الصمت فأعجب ذلك الأحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الأحنف تكلم يا ابن أخي فقال يا عم أرأيت لو أن رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شيء فقال يا ابن أخي ليتنا تركنا كالك مستورا ثم تمثل الأحنف بقول الاعور الشني

وكأئن ترى من صامت لك معجب * زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكى عن أبي يوسف الفقيه أن رجلا كان يجلس إليه فيظيل الصمت فقال له أبو يوسف ألا تسأل قال بلى متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى نصف الليل قال فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل بيتي الخطي جديري

عجبت لازراء العي بنفسه * وصمت الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت ستر للعي وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومما أطرفك به عنى أنى كنت يوما فى مجلسى بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابي إذ دخل على رجل مسن قد ناهز الثمانين أوجاوزها فقال لى قد قصدتكم بمسألة اخسترتك لها فقلت اسأل عافاك الله ووطننته يسأل عن حادث

نزل به فقال أخبرني عن نجم ابليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما الا علماء الدين ففجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقع مع ما ظهر من حاله الاجواب مثله فأقبلت عليه وقلت يا هذا إن المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف الا بعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فأسأله فينتدأ قبل على وقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد أيام عاد وقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مواليد هذين فانظر الى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم وأعرابوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرضه . وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعدد كلامه من عمله كثرت خطاياها . وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال بعض البلغاء طحس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب . وقال أبو تمام الطائي

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام ويقول اذا جالست الجاهل فأنتصت لهم واذا جالست العلماء فأنتصت لهم فان في انصاتك للجاهل زيادة في الحلم وفي انصاتك للعلماء زيادة في العلم . وأما الشرط الثاني فهو أن يأتي بالكلام في موضعه لان الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما

لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بأنه هذيان وهجر فان قدم ما يقتضى التأخير كان عجالة وخرقا وان أخر ما يقتضى التقديم كان تواني وعجزا لأن لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا . وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه * وكلامها من بعدها نزر

وأما الشرط الثالث وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لخدمته غاية ولا تقدر منه يايه ومالم يكن من الكلام محصورا كان إما حصر ان قصر أو هذرا ان كثر . وروى أن أعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاى وأسنانى قال فان الله عز وجل بكره الاتبعاق فى الكلام فنضرت الله وجه امرئى أو جزفى كلامه فاقتصر على حاجته . وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقول السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به . وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثر آثامه . وقال ابن مسعود أنذركم فضول المنطق . وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل وابتصر منه على القليل واياك وما يسخط سلطانك ويوحش اخوانك فن أسخط سلطانه تعرض للنيه ومن أوحش اخوانه تبرأ من الحزبه . وقال بعض الشعراء وزن الكلام اذا نطقت فانما * يبدى عيوب ذوى العيوب المنطق

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذرا أشنع وربما كان فى الغالب أخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الا

حصائد ألسنتهم . وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه . وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الجبه والهذر يتلف المهجبه . وقد قال الشاعر

رأيت اللسان على أهله * اذا ساسه الجهل ليثامغيرا

وقال بعض الأدباء يارب السنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها وما ينقص من هيئات الرجال يزيد في بهائها وألبابها . وقد ذهب بعضهم الى أن الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يتعوده زلل فهو البيان والسحر الحلال . وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كالا إن من تكلم فأحسن قدر على أن يسكت فيحسن وليس من سكت فأحسن قدر على أن يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا أخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا أملاه . وأنشد بعضهم في خطباء إياد

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال النهيتم بن صالح لابنه يابني اذا أقلت من الكلام أ كرت من الصواب فقال ياأبت فان أنا أ كرت وأ كرت يعني كلاما وصوابا فقال يابني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك . وأنشدت لأبي الفتح البستي
تكلم وسد ما استطعت فانما * كلامك حى والسكوت جناد
فان لم تجد قولا لاسديدا تقوله * فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام فقال أقسمت بكون صوابا أو خطأ قالوا لا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير . وقال أبو عثمان الجاحظ للكلام غابه ولتشاط السامعين نهايه وما فضل عن مقدار

الاحتمال ودعا الى الاستئصال والملاذ فذلك الفاضل هو الهذر وصدق أبو
عثمان لان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو
صادر عن اعجاب به لولاه لأقصر عنه ومن أعجب بكلامه استرسل فيه
والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم العثار . وقال بعض الحكماء من أعجب
بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي
ضرره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامع به السامة والملل وليس في
مقابله هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . وقد روى عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال أبغضكم الى المتفهم المكثار والملح المهذار . وسأل رجل
حكيمًا فقال متى أتكلم قال اذا اشتيت الصمت فقال متى أصمت قال اذا
اشتيت الكلام . وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيًا كان الاكثار
عيًا وان كان الاكثار واجبًا كان التقصير عجزًا . وقيل في منشور الحكم اذا
تم العقل نقص الكلام . وقال بعض الأدباء من أطال صمته اجتلب
من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره . وقال بعض البلغاء عى تسلم
منه خير من منطلق تندم عليه فافتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ
حاجتك واياك وفضوله فإنه يزل القدم ويورث الندم . وقال بعض
الفحهاء فم العاقل لمجم اذا همم بالكلام أججم وفم الجاهل مطلق كلما شاء
أطلق . وقال بعض الشعراء

ان الكلام يغير القوم جلوته * حتى يلج به عى واكثار

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذى يتكلم به فلأن اللسان عنوان
الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم أن يكون بهتذيب
ألفاظه حريًا وتقويم لسانه مليًا . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال لعمري العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل يارسول الله قال
لسانه وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل كان الابهيمه مهملة
أوصورة ممثلة . وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان . وقال بعض
البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله . وقال بعض
الشعراء

وان لسان المرء ما لم تكن له * حصاة على عوراته دليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن أخذ نفسه بالبلاغة وكافها الزوم الفصاحة
حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل
المعنى لأن البلاغة ليست على معان مفردة ولا لألفاظها غاية وانما البلاغة
أن تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ فصحة فتكون فصاحة
الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة . وقد قيل لليوناني ما البلاغة قال
اختيار الكلام وتصحيح الأقسام وقيل ذلك للرومي فقال حسن الاختصار
عند البديهة والغزارة يوم الاطالة وقيل للهندي فقال معرفة الفصل
من الوصل وقيل للعربي فقال ما حسن إيجازه وقل مجازه وقيل للبدوي
فقال مادون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل وقيل
للخضري فقال ما كثير إيجازه وتناسبت صدوره وأعجازه . وقال ابن المقفع
البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر . وسأل الحجاج ابن القريّة
عن الإيجاز قال أن تقول فلا تبطئ وأن تصيب فلا تخطئ . وقال
الشاعر

خير الكلام قليل * على كثير دليل
والعنى معنى قصير * يحويه لفظ طويل

وفي الكلام فضول * وفيه قال وقيل

وأما صحة المعاني فتكون من ثلاثة أوجه . أحدها إيضاح تفسيرها حتى لا تكون مشككة ولا مجملة . والثاني استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو فيها . والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين . أحدهما مقابلة المعنى بما يوافق حقيقته وهذه المقاربة لأن المعاني تصير متشككة . والثاني مقابله بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة إلا أحدهذين الوجهين . الموافقة في الائتلاف والمضادة مع الاختلاف . فأما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة أوجه . أحدها مجانبة الغريب الوحشي حتى لا يعجزه سمع ولا ينفر منه طبع . والثاني تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي ولا ينبوع عن فهمه عاني كما قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فلم أرقوما أم مثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا . والثالث أن يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة . أما المطابقة فهي أن تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة إلى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدت هاقلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موضعها فانك إن لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكاف اختيار الكلام المنشور لم يعبك بترك ذلك أحد وإذا أنت تكافئها ولم تكن حاذقاً فيها عابك من أنت أقل عيائمه وأزرى عليك من أنت فوقه . وأما المناسبة فهي أن يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ إما

لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت أفصح وأوضح لاعتماد ما سواها . وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه أسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك وأمام عظام الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادباء فضلا عن أن يكون في عداد البلغاء

واعلم أن للكلام آدابا ان أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوى أدبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه فن آدابه أن لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجاوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب . يروى أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تميم سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهثم عن قيس بن عاصم فدحه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم أني خير مما وصف ولكن حسدني فذمه عمرو وقال والله يا رسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الأخرى لأنى وضيت في الاولى فقلت أحسن ما علمت وسخطت في الأخرى فقلت أقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على أن السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة لاسيما اذا مدح تقربا واذم تحقفا . وحكى عن الأحنف بن قيس أنه قال سهرت لي لاتي أفكر في كلمة أرضى بها سلطانى ولا أسخط بها ربي فما وجدت لها . وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل لم يدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ومعه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه

بما يسخط الله عز وجل وسمع ابن الرومي رجلاً لا يصف رجلاً ولا يبالي في مدحه فأشأ يقول

إذا ما وصفت امرأً لأمري * فلا تغل في وصفه واقصد
فإنك إن تغل تغل الظن * ن فيه إلى الأمد الأبعد
فيضال من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

ومن آدابه أن لا تبعث الرغبة والرغبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنها ولا يقدر على الوفاء بهما فإن من أطلق بهما لسانه وأرسل فيهما عنانه ولم يستقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعدده نكثاً ووعدده عجزاً . وحكى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله قال أنه يخطبها بنفسه و يقول لها زوجيني نفسك أسكنك أي غرف دمشق شئت وقال سليمان كذب العصفور فإن غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر أن يسكنها هنالك وليكن كل خاطب كاذب . ومن آدابه أن قال قولاً لحققه بفعله وإذا تكلم بكلام صدقه بعمله فإن إرسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولأن يفعل ما لم يقل أجل من أن يقول ما لم يفعل . وقال بعض الحكماء أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه إلى الكلام أي يكفي بالفعل من القول . وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل * والفعل ما وكده العقل

لا يثبت القول إذا لم يكن * يقوله من تحته الأصل

ومن آدابه أن يراعى مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فإن كان ترغيباً قرنه باللين واللفظ وان كان تهيباً خلطه بالحسونة والعنف

فان ابن اللفظ فى الترهيب وخشونته فى الترغيب خروج عن موضعهما
وتعطيل المقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهما . وقد
قال ابوالاسود الدؤلى لابنه يابنى ان كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من هو
فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك . ومن آدابه أن لا يرفع
بكلامه صوتا مستكرها ولا يزعج له انزعاجا مستهجننا وليكف عن حركة تكون
طيشا وعن حركة تكون عيانا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة . وقد
حكى أن الججاج قال لأعرابي أخطيب أنا قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد
وتقول أما بعد . ومن آدابه أن يتجانب هجر القول ومستعجب الكلام
وليعدل الى الكناية عما يستعجب صريحه ويستهجى فصيحى ليلبغ الغرض
ولسانه نزه وأدبه مصون . وقد قال محمد بن على فى قوله تعالى « واذا مروا
باللغومر واكراما » قال كما اذا ذكر والفروج كنواعنها وكما أنه يصون
لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغى الى فحش فان
سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش
معرضا كف قائله وكان اعراضه أحد النكيرين كما أن سماعه أحد
الباعثين وأنشدنى ابوالحسن بن الحارث الهاشمى

تجر من الطرق أوساطها * وعد عن الموضع المشتبه
وسمعت من عن قبيح الكلام * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع القبيح * شريك لقائله فانقبه

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره فى وجوب اجتناب ولزوم تنكبه ما كان
شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف
والروية مستقيما كالذى رواه الأزدى عن الصولى لبعض المتكلمين من الشعراء

اننى شيخ كبير * كافر بالله سيسى
أنت ربى والهى * رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أى لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمي الكافر بالله كافرا
لأنه قد غطي نعمته الله بعصيته وقوله بالله سيسى يقسم عليها أن تسير وقوله
أنت ربى يعنى ربى ذلك من التربية والهى رازق الطفل الصغير كما أنه رازق
الولد الكبير فأنظر الى هذا التكاف الشنيع والتعمق البشيع ما اعتاض
من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لو ما ان حسن فيه الظن
أو ذما ان قوى فيه الارتباب وقبلما يكون ذلك الامن خليع بطر ومرتاب
أثر فأما الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تصلوا على
النبي فخارج من هذا النوع من التليس وفي تأويله وجهان . أحدهما
أنه أراد النهى عن الصلاة فى المكان المرتفع المحدود ب ما حوذه من النبوة .
والثانى أنه أراد الطريق ومنه سمي رسل الله أنبياء لانهم الطرق اليه وانما
زان عنه التليس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره
تليساشنيعا لأن موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرفان كلامه
عن التجوز والاسترسال فى أمر أو نهى الى ما لا يجوز أن يرد به شرع وينهى
عنه نبي وليس يمتنع ذلك فى غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره .
ومن آدابه أن يجنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء
الأدباء فان لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم . فلا تجرد اسقاط
الأمثالا ساقطا وتشبيها مستعجبا والسقاط أمثال فمنها تشبههم للشئ
المريب كما قال الصنوبرى

اذا ما كنت ذابول صحيح * الأفاضل بيه وجه الطيب

ولذلك علتان . احدهما أن الامثال من هو اجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذى الهممة الساقطة الامثال مرذول وتثبيته معلول .
والثانية أن الامثال مستخرجة من أحوال الممثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم فلها تين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة وربما ألف المتخصص مثالا عاما أو تشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الأراذل فيسترسل في ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكى عن الأصمعي أن الرشيد سأله يوما عن أنساب بعض العرب فقال على الخير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله حسك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء من الأصمعي الذى هو واحد عصره وقرىع دهره . وللامثال من الكلام موقع في الاسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لان المعاني بها لأئحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها واقفة والقلوب بها واقفة والعقول لها موافقه فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رساله وأوضح بها الحجية على خلقه لأنها في العقول معقوله وفي القلوب مقبولة ولها أربعة شروط . أحدها صحة التشبيه . والثانى أن يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا . والثالث أن يسرع وصولها للفهم ويجعل تصورهما في الوهم من غير ارتباء في استخراجها ولا كد في استنباطها . والرابع أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيرا وحسن موقعا فإذا اجتمعت في الامثال المضروبة هذه الشروط الأربعة كانت زينة للكلام وجلاء للعانى وتدبر الالفهام

﴿الفصل الثاني في الصبر والجزع﴾ اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا واعدوا لكم ورابطوا وقبضوا وأويلان . أحسدهما على الجهاد . والثاني على انتظار الصلوات . وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتأكيده الصبر فيما أمر به ونهى إليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر مستمر من الكروب وعون على الخطوب . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو . وقال عبد الحميد لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أفضل العدة الصبر على الشدة . وقال بعض البلغاء من خير خلائك الصبر على اختلاف . وقيل في منشور الحكم من أحب البقاء فليعد للصائب قلبا صبوراً . وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكربة تدرك الحظوظ . وقال عبيد بن الأبرص

صبر النفس عند كل ألم * ان في الصبر حيلة المحتمل
لا تضيقن في الأمور فقد تك * شفاء غمها بغير احتيال
رب ما تجزع النفوس من الأمل * رله فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع فى كتاب الينمة الصبر صبران فالثام أصبر أجساما والكرام
أصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوى الجسد
على الكد والعمل لأن هذامن صفات الخير ولكن أن يكون للنفس غلوبا
وللامور متحملا ولجأشه عند الحفظ امر تبطا

واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو فى كل قسم منها محمود . فأول أقسامه
وأولها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتها عما نهى الله عنه لأنه به
تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق
الثواب كما قال فى محكم الكتاب انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب
ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد
وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا أصيب من صلاح ومن لم ير
لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من
الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى يا من
يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أثر جو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه . وقال
أبو اعناهبية رحمه الله تعالى

أرأيت من أرجو من الله عقوبه * وأنت على ما لا يحب مقبىم
تدلى على التقوى وأنت معصر * فإمن يداوى الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لغرض الجزع وسد الخوف فان من خاف
الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عندأوامره .
والقسم الثانى الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها
أوحادثه قدأ كده الهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه
المثوبة عنها فان صبر طائعا والاحتمل هما لازما وصبر كارها آثما .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي
ويصبر على بلائي فليختر ربا سواي . وقال علي بن أبي طالب كرم الله
وجهه للأشعث بن قيس أنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور
وان جرعت جرى عليك القلم وأنت مأزور . وقد ذكر ذلك أبو تمام في
شعره فقال

وقال علي في التعازي لأشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم

أتصبر للبلوى عزاء وخشية * فتوَجَّر أو تسالو سلوالبها ثم

وقال شبيب بن شيبة للهدى إن أحق ما تصبر عليه ما لم تجد إلى دفعه سبيلا
وأنشد

ولئن تصبكت مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وقال آخر

تصبرت مغلوبا وإنى لموجع * كما صبر الظمان في البلد القفر
وليس اصطباري عند صبر استطاعة * ولكنه صبر أمر من الصبر

والقسم الثالث الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة وأعوذ زنيه
من مسرة مأمولة فإن الصبر عنها يعقب السلو منها والأسف بعد اليأس
خرق . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أعطى فشكر ومنع
فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وقال
بعض الحكماء اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم
تقله . وقال بعض الشعراء

إذا ملك القضاء عليك أمرا * فليس يحله غير القضاء

فمالك والمقام بدارذل * ودار العز واسعة القضاء

وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فأخذه بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت * فقلما يجدى عليك الحزن
سيان محزون على فائت * ومضمحرتنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل همّ ما لم يأت فإن أكثر الهموم كاذبة وان الأغلب من الخوف مدفوع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج . وقال الحسن البصرى رحمه الله لا تحملن على يومك همّ غدك فحسب كل يومهمه . وأنشد الجاحظ لحوارثة بن زيد

إذا الهم أمسى وهو داء فأمضه * ولست بمضيه وأنت تعادله
ولا تنزلن أمر الشديدة بأمرئى * إذا همّ أمر عوقته عوادله
وقل للعواد ان تجدبك ثروة * من الروع فافرخ أكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فإنه ان أدهسه التوقع لها وأذهله التطلع إليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعدر رجائه وأعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلبت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فأبصر رشده وعرف قصده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ضياء يعنى والله أعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور . وقال أكرم بن صيني من صبر ظفر . وقال ابن المقفع كان مكتوبا في قصر أردشير الصبر مفتاح الدرر . وقال بعض الحكماء

بحسن التآني تسهل المطالب . وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن
شكر حصن العمى . وقال محمد بن بشير

ان الأمور اذا سددت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتجبا
لا تأسسَن وان طالت مطالبه * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته * ومد من القرع للأبواب أن يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فبالصبر
في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكاييد الأعداء فان من قل صبره
عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه . وقد قال
الله تعالى واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور . وروى عن ابن
عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان استطعت أن
تعمل لله بالرضا في اليقين فأفعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره
خبيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع
العسر . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه الصبر مستأصل الحدثنان
والجزع من أعوان الزمان . وقال بعض الحكماء بفتاح عزيمه الصبر تعالج
مغاليق الأمور . وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع
الفرج . وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليه ما
السلام لما استكد شيئا طينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال
ألستم تذهبون فرغوا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففي ذلك راحة فبلغ
ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك
الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة
لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار

فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال الآن جاء كم الفرج فالبثوا أن أصيب
سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا في نبي من أنبياء الله يعمل
بأمره ويقف على حده فكيف بما جرت به الاقدار من يد عادية وساقه انقضاء
من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي الامنقرضة وعند بلوغ الغاية
الامنقرضة . وأنشد بعض الادباء لعثمان بن عفان رضى الله عنه

خليلى لا والله ما من ملة * تدوم على حتى وان عي جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تسكرا الشكوى اذا التعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب * فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسى عزيزة * فلما رأيت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب اذا قارنت حزما وصادفت
عزما هان وقعها وقل تأثيرها وضررها . فمنها استشعار النفس بما تعلمه من
نزول الفناء وتقضى المسار وأن لها آجالا منصومة ومدد انقضية اذ ليس
للدنيا حال تدوم ولا مخلوق فيها بقاء . وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما مثلى ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى
ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها . وسئل على بن أبى طالب رضى
الله عنه عن الدنيا فقال تغرّ وتضر وتغر . وسأل بعض خلفاء بنى العباس
جليس له عن الدنيا فقال اذا أقيمت أدبرت وقال عمرو بن عبيد الدنيا أمد
والآخرة أبد . وقال أنوشروان ان أحببت أن لاتعتم فلا تعتن ما به تهتم
فأخذه بعض الشعراء فقال

ألم تر أن الدهر من سوء فعله * يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
فن سره أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

لحكمتنا بقراط خير قضية * ووصية تنفي الهموم الر كذا
قال الهموم تكون من طبع الورى * في لبث ما في طبعه أن ينفدا
فاذا اقتنيت من الزاجحة قابلا * للكسر فأنكسرت فلانك مكدا
وأنشدني بعض أهل العلم أسعدي بن مسلم

انما الدنيا هيات * وعوار مستترده

شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شدة

ولما قتل بز جهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد فقيم
الكذ وان لم يكن للا مردوام فقيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك فقيم الحيلة
وقال ابن الرومي .

رأيت حياة المسرء رهنا بعوته * وصحته رهنا كذلك بالسقم

اذا طاب لي عيش تنعص طيبه * بصدق يقيني أن سيذهب كالعلم

ومن كان في عيش براعى زواله * فذلك في بؤس وان كان في نعم

ومنها أن يتصور انجاب الاء الشدا تدوانكشاف الهموم وأنها تقدر بأوقات
لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان
كان كل يوم يمر بهما يذهب منها بشرط ويأخذ منها بنصيب حتى تنجلي وهو
عنها غافل . وحكى أن الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للوكل
به قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسك مثله والامر قريب والحكم
لله تعالى فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

لو أن ما أتتوفيه بدوم لكم * ظننت ما أتأفيسه دائماً أبداً
 لكننى عالم أنى وأنكم * سنستجد خلاف الحالتين غداً
 وأنشد لبعض الشعراء

تراقب مكروه الامور خيار * وأيام ضرر لا تدوم قصار
 وليس بباق بؤسها ونعيمها * انا كزليل ثم كزنها
 وأنشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين حضرته الوفاة
 ألم تر أن ربك ليس تحصى * أياديه الحديثة والقديمة
 تسل عن الهدوم فليس شئ * يقوم ولا همومك بالمقيمة
 لعل الله ينظر بعد هذا * اليك بتظرة منه رحيمه

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الرزايما وكفى من الحوادث ما هو أعظم من رزايته
 وأشد من حادثته ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع . وذلك قال النبي صلى الله
 عليه وسلم « ان الله تعالى في أنشاء كل محنة منحة » . وقيل للشعبي في نائبة
 كيف أصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعراء
 لا تنكره المكروه عند حلوله * ان العواقب لم تزل متباينه
 كم نعمة لا تستقل بشكرها * لله فى طي الكاره كامنه
 ومنها أن يتأسى بذوى الغير ويتسلى بأولى العبر ويعلم أنهم الاكثرون عدداً
 والاسرعون مدداً فيستجد من سلوة الأسى وحسن العزا ما يخفف شجوه
 ويقل هلعه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الصفة وا بذوى الغير تسع
 قلوبكم وعلى مشن ذلك كانت من ابي الشعراء قال البحتري

فلا عجب الاسد ان طفرت بها * كلاب الأعداى من فصيح وأجمع
 فخرية وحشى سقت حجرة الردى * وموت على من حسام ابن ملجم

وقال أبو نواس

المريين مصائب لا تنقضى * حتى يوارى جسمه في رمسه
 فوجل يلقى الردى في أهله * ومجمل يلقى الردى في نفسه
 ومنها أن يعلم أن النعم زائرة وأنهم الاحمالة زائلة وأن السرور بها إذا أقبلت
 مشوب بالخذر من فراقها إذا أدبرت وأنهم لا تفرح بأقبالها فرحا حتى تعقب
 بفراقها فرحا فعلى قدر السرور يكون الحزن . وقد قيل في منشور الحكم
 المقروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية
 ما يكره . وقال بعض الحكماء من علم أن كل نائبة إلى انقضاء حسن عزائه
 عند نزول البلاء وقيل للحسن البصرى رحمه الله كيف ترى الدنيا قال
 شغلنى توقع بلائها عن الفرح برحائنها فأخذها أبو العتاهية فقال
 تزينه الأيام ان أقبلت * شدة خوف لتصاريفها
 كأنها في حال اسعافها * تسمعه وقعة تخويفها

ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره
 إذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب وتصل صاحباً بفراق صاحب
 فتكون سرور المن وصلته وحزن المن فارقتة . وقد قال النبي صلى الله
 عليه وسلم « ما فرعت عصا على عصا إلا فرح لها قوم وحزن آخرون »
 وقال البخارى

متى أرت الدنيا نباحة حامل * فلا ترتقب الاخول نبيه

وقال المتنبي

بذا قضت الأيام ما بين أهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد

وأنشد بعض أهل الادب

ألا انما الدنيا غضارة أيكمة * اذا خضر منها جانب جف جانب
فلا تفرحن منها شيئاً تفيده * سيذهب يوماً مثل ما أنت ذاهب
وما هذه الايام الا فجائع * وما العيش واللذات الامصائب
ومنها أن يعلم أن طوارق الانسا من دلائل فضله ومحنه من شواهد نيله
وذلك لاحدى علتين إما لأن الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر النقص
عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه .
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما انتقصت جارحة من انسان
الا كانت ذكاء في عقله » وقال أبو العتاهية
ما جاوز المرء من أطرافه طرفاً * الا تحوّن به النقصان من طرف

وأنشدنى بعض أهل الادب لابراهيم بن هلال الكاتب

اذا جمعت بين امرأين صناعة * فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق
فلا تتفقد منه ما غير ما جرت * به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع * وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق
وإما لأن ذا الفضل محسود وبالأذى مقصود فلا يسلم في بره من معاد
واشتطاط مناو . وقال الصنوبرى

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى * كالنار مخبيرة بفضل العنبر
وقلما تكون محنة فاضل الامن جهة ناقص وبلوى عالم الاعلى يد جاهل
وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم .
وقد قال الشاعر

فلا غرو أن يعنى عليم بجاهل . فن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيد من الحنكة ببلاء
دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل بادننى شدته وورخائه ويتعظ
بحالة عفوه وبلائه . حكى عن ثعلب قال دخلت على عميد الله بن سليمان
ابن وهب وعليه خلع الرضى بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال لى يا أبا العباس
اسمع ما أقول

نوائب الدهر أدبتنى * وانما ابو عظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرًا * كذا لعيش الفتى ضروب
لم يعض بؤس ولا نعيم * إلا ولى فيهما نصيب
كذلك من صاحب اليمالى * تغذوه من دررها الخطوب

فقلت لمن هذه الابيات قال لى . ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على
صلاح شأنه فلا يغتر برخاء ولا يطمع فى استواء ولا يؤمل أن تبقى
الدنيا على حالة أو تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبير
أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها . وأنشد بعض الادباء

انى رأيت عواقب الدنيا * فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت فى الدنيا وعالمها * فاذا جميع أمورها تبنى
وبلوت أكثر أهلها فاذا * كل امرئ فى شأنه يسعى
أسنى منازلها وأرفعها * فى العز أقربها من المهوى
تعفو مساوئها محاسنها * لافرق بين النعى والبشرى
ولقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى
أترالك تدرى كم رأيت من الأحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا نظرت المصاب بأحد هذه الاسباب تخففت عنه أحزانه وتسملت

عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء . وقال
بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن
متوجعا . وقال بعض الشعراء

ما يكون الأمر سهلا كاه * انما الدنيا سرور وحزون

هون الأمر تعش في راحة * قلما هونت الا سيمون

تطلب الراحة في دار العنا * ضل من يطلب شيئا لا يكون

فان أغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من أسباب الصبر تضاعف عليه
من شدة الاسبى وهم الجزع ما لا يطبق عليه صبرا ولا يجده عنه سلوا . وقال
ابن الرومي

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق

فاذا ساعده جزعه بالأسباب الباعثة عليه وأمدّه هلعه بالذرائع الداعية اليه
فقد سعى في حتفه وأعان على تلفه . فن أسباب ذلك تذكر المصاب حتى
لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجبد من التذكار سلوة ولا يخلط مع
التصور تعزية . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تستغزوا الدموع
بالتذكر . وقال الشاعر

* ولا يبعث الأحزان مثل التذكر *

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجبد لفقوده بدلا
فيراد بالاسف ولها وبالحسرة هلعاً . ولذلك قال الله تعالى « لكيلا تأسوا
على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . وقال بعض الشعراء

اذا بليت فثق بالله وارض به * ان الذى يكشف البلى هو الله

اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما الامرئ حيلة فيما قضى الله

الياس يقطع أحياناً بصاحبه * لا تيأسن فان الصانع الله
ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى فاصبر صبراً جميلاً
انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال « ما صبر من بث » . وحكى كعب الأحبار أنه مكتوب في
التوراة من أصابته مصيبة فشكا الى الناس فأعماه شكور به وحكى أن
أعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخاً في دار فقالت ما هذا فقيل لها
مات لهم انسان فقالت ما أراهم الامن ربهم يستغيثون وبه قضائهم يتبرمون
وعن ثوبه يرغبون . وقد قيل في منشور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه .
وأنشد بعض أهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق

* لا يخرج الغريق بالغريق *
وقال بعض الشعراء

لا تشك دهرك ما صححت به * ان الغنى هو صحة الجسم

هيك الخليفة كنت منتفعا * بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها اليأس من خير مصابه ودرك طلابه فيقتربن بحزن الحادثة فنوط
الاياس فلا يبقى معهم اصبر ولا يتسع لهم صدر وقد قيل المصيبة بالصبر
أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومي

اصبري أيتها النفس * فان الصبر أحجى

ربما خاب رجاء * وأتى ما ليس يرجى

وأنشد في بعض أهل العلم

أتحسب أن البؤس للحـردائم * ولودام شئ عنده الناس في العجب

لقد عرفت قتل الحاديات ببؤسها * وقد أدبت ان كان ينفعك الأدب
ولو طلب الانسان من صرف دهره * دوام الذي يخشى لأعيامه ما طلب
ومنها أن يغرى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف
بالأمن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزق
بعد أن كان مساويا وأفرديا بالحادثه بعد أن كان مكافيا فلا يستطيع
صبرا على بلوى ولا يلزم شكرا على نعمى ولو قابل به هذه النظرة ملاحظة من
شاركه فى الرزق وسأواه فى الحادثه تكافأ الامران فهان عليه الصبر ووحان
منه الفرج . وأنشدت لامرأة من العرب

أيها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا
كم رأينا اليسوم حرا * لم يكن بالامس حرا
ملك الصبر فأضحى * مالكا خيرا وثرا
اشرب الصبر وان كا * ن من الصبر أمرا

وأنشدت لبعض أهل الأدب

يراع الفتى للخطب تبد وصدوره * فيأسى وفى عقباه يأتى سروره
ألم تر أن الليل لما تراكت * دجاه بنا وجه الصباح ونوره
فلا تحسبن اليأس ان كنت عالما * نبيما فان الدهر شتى أموره

وأعلم أنه قل من صبر على حادثه وتماسك فى نكبة الا كان انكشافها وشيكا
وكان الفرج منه قريبا أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب
حبس فى السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب
الى بعض اخوانه يشكوه طول حبسه فرد عليه جواب رفعت به هذا
صبرا أبا أيوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فن لها

ان الذي عقد الذي انعقدت له * عقد المكاره فيك يملك حلها
 صبر ا فان الصبر يعقب راحة * ولعلها أن تنجلي ولعلها
 فأجابه أبو أيوب يقول
 صبرتنى ووعظتنى وأنا لها * وستجلى بل لا أقول لعلها
 ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها
 فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا أياما حتى أطلق مكرما . وأنشد ابن دريد
 عن أبي حاتم

اذا شملت على اليأس القلوب * وضاق لمابه الصدر الرحيب
 وأوطنت المكاره واطمأنت * وأرست في مكاتها الخطوب
 ولم ير لانكشاف الضر وجهها * ولا أغنى بحيلته الأريب
 أتاك على قنوط منك غسوث * يمن به اللطيف المستجيب
 وكل الحادثات اذا تناهت * فوصول بها الفرج القريب

﴿الفصل الثالث في المشورة﴾ اعلم أن من الحزم لكل ذي لب أن لا يرم
 أمرا ولا يعضى عزما الا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل
 الراجح فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به
 من ارشاده ووعده من تأييده فقال تعالى « وشاورهم في الامر » .
 قال قتادة أمره بمشاورتهم تألفا لهم وتطيبا لأنفسهم . وقال الضحاک
 أمره بمشاورتهم لما علم فيهما من الفضل . وقال الحسن البصرى رحمه الله
 تعالى أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان
 عن مشورتهم غنيا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « المشورة
 حصن من الندامة وأمان من الملامة » . وقال علي بن أبي طالب رضی الله

عنه نعم الموازنة المشاورة وبئس الاستعداد الاستعداد . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيستدبرها برأيه ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي ورجل حائر بأمره لا ياتر شدا ولا يطيع مرشدا . وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناصرة بابارحة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ولا يفقد معهما خرم . وقال سيف بن ذي يزن من أعجب برأيه لم يشاور ومن استبد به برأيه كان من الصواب بعيدا . وقال عبد الحميد المشاور في رأيه ناظر من ورائه . وقيل في منشور الحكم المشاورة راحة الك وتعب على غيرك . وقال بعض الحكماء الاسفارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الادباء ما حاب من استخار ولا ندم من استشار . وقال بعض البلغاء من حق العاقل أن يضيف الى رأيه آراء العقلاء ويجمع الى عقله عقول الحكماء فالرأى الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل . وقال بشار بن برد

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فان الخوا في قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احدها عقل كامل مع تجربة سالفة فانه بكثرة التجارب تصح الروية . وقد روى أبو الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » . وقال عبد الله ابن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك أن يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر

العاقل وتوريط الجاهل . وقيل لرجل من عبس ما أكره صوابكم قال
نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فإنا ألف حازم وكان يقال أياك
ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره أو كبير قد أخذ
الدهر من عقله كما أخذ من جسمه . وقيل في منشور الحكم كل شيء يحتاج
إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب ولذلك قيل الأيام تهتك لك عن
الاستار الكامنة . وقال بعض الحكماء التجارب ليست لها غاية والعاقل
منها في زيادة . وقال بعض الحكماء من استعان بذوى العقول فاز يدرك
المأمول . وقال أبو الأسود الدؤلي

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه * ولا كل مؤت نصحه بليب
ولكن إذا ما استجمعا عند صاحب * فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية - أن يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب
كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة . روى
عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من أراد أمر افشاور فيه امرأ مسلماً وفقهه الله لأرشد أموره » .

والخصلة الثالثة - أن يكون ناصحاً ودوداً فان النصح والمودة يصدقان
الفكرة ويمحضان الرأي . وقد قال بعض الحكماء لا تشاور إلا الحازم غير
الحسود والليب غير الخقود وإياك ومشاورة النساء فان رأيهن إلى الأفن
وعزمهن إلى الوهن . وقال بعض الأدباء مشورة المشفق الحازم طفر
ومشورة غير الحازم خطر . وقال بعض الشعراء

أصف ضمير المن تعاشره * واسكن إلى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته * بما يؤدى اليك ظاهره

من يكشف الناس لا يجد أحدا * تصح منهم له سرأوه
أوشك أن لا يدوم وصل أخ * فى كل زلاته تنافسه

والخصلة الرابعة - أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاعل فان من
عارضت فكره مشائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر . وقد قيل
فى منشور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب وكان
كسرى اذا دهمه أمر بعث الى عرازبته فاستشارهم فان قصر وافى الرأى
ضرب قهارمته وقال أبطأتم بأرزا قهم فأخطوا فى آرائهم . وقال صالح
ابن عبد القدوس

ولامشير كذى نصح ومقدرة * فى مشكل الأمر فاختر ذلك منتصحا

والخصلة الخامسة - أن لا يكون له فى الأمر المستشار غرض يتابعه ولا
هوى يساعده فان الأغراض جاذبة والهوى صاد والرأى اذا عارضه
الهوى وجاذبته الأغراض فسد . وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة
ابن أبى لهب

وقد يحكم الأيام من كان جاهلا * ويردى الهوى ذا الرأى وهو لبيب
ويحمد فى الأمر الفتى وهو مخفى * ويعذل فى الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس فى رجل كان أهلا للشورى ومعدنا للرأى
فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تشوهمه من فضل رأيك وثقة بما
تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب
أقرب خلوص الفكر وخلو خاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة .
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « رأس العقل بعد الايمان

بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبذ برأيه وما هلك أحد عن مشورة
 فاذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه . وقال علي بن أبي طالب
 رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال
 لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الأمور فانه يعطيك من رأيه ما قام
 عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجاناً . وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع
 أخيك فشاوره ليكمل لك الرأى . وقال بعض الادباء من استغنى برأيه
 ضل ومن اكتفى بعقله زلّ وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد أحمق
 من الصواب مع الاستبداد . وقال الشاعر

خليلى ليس الرأى فى صدر واحد * أشير على بالذى تريان

ولا ينبغى أن يتصور فى نفسه أنه ان شاور فى أمره ظهر للناس ضعف رأيه
 وفساد رويته حتى افتقر الى رأى غيره فان هذه معاذير النوكى وليس يراد
 الرأى للباهات به وانما يراد للانتفاع بنتيجته والتحرر عن الخطأ عند زلله
 وكيف يكون عارا ما أدى الى صواب ومدع عن خطأ . وقد روى عن النبي
 صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقموا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على
 أموركم بالمشاورة » . وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك
 على عقلك . وقال بعض البلغاء اذا أشكلت عليك الأمور وتغيرك
 الجهوز فارجع الى رأى العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف
 من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلأن تسأل وتسلم خير لك
 من أن تستبد وتندم وينبغى أن تكثر من استشارة ذوى الألباب لاسيما
 فى الامر الجليل فقلبا يضل عن الجماعة رأى ويذهب عنهم صواب لأن
 ارسال الخواطر الشاقبة واجالة الافكار الصادقة لا يعزب عنها مكن ولا

يخفى عليها جائز . وقد قيل في منشور الحكم من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا وان كان الخطأ من الجماعة بعيدا فإذا استشار الجماعة فقد اختلف أهل الرأي في اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب الفرس أن الأولى اجتماعهم على الارتياح والجلالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وأنتجته فكره حتى إذا كان فيه قدح عورض أو توجه عليه رد نقض كالجدل الذي تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فإنه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل إلا ظهر ولا زال الابان وذهب غيرهم من أصناف الأمم إلى أن الأولى استمرار كل واحد بالمشورة ليحيل كل واحد منهم فكره في الرأي طمعا في الخطوة بالصواب فان القرائح إذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد وإذا اجتمعت فقوضت وكان الأول من بدائهم متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجهه ووجه الثاني أظهر . والذي أراه في الأولى غيرها ذين المذهبين على الاطلاق ولكن يتطرق في الشورى فإن كانت في حال واحدة هل هي صواب أم خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لأن ما تردد بين أمرين فالمراد منه الاعتراض على فساد أو ظهور الخبث في صلاحه وهذا مع الاجتماع أبلغ وعند المناظرة أوضح وان كانت انشورى في خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من أمور خافية وأحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يحجمها تقسيم ولا عرفها اجواب يكشف عن خطئها وصوابه فالأولى في مثله انفراد كل واحد بفكره وخلقته بخاطره ليجهت في الجواب ثم يقع الكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد أوضح والاجتماع

على المناظرة أبلغ فهذه الهداه وينبغي أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشار ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارتياح والاجتهاد فإذا تصفح أقاويل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الأمر مقلدا ولا في الرأي مفوضا فإنه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احدها من معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأي واقتراح ما أغلق من الصواب فإذا تقرره الرأي أمضاه ولا يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فإتباع على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لاسيما والمقادير غالبية ومتى عرف منه تعقب المشير وكل إلى رأيه وأسلم إلى نفسه فصار فردا لا يعان برأى ولا يتدبشورة وقد قالت الفرس في حكمتها أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة وأقل التأنى خير من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم وإذا استبد الملك برأيه عميت عليه المرشد وإذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى أهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتته عفوفا فإن الرأى كالمضاللة تؤخذ أين وجدت ولا يهون للمهانة صاحبه في طرح فإن الدرة لا يضعها مهانة غائصها والمضاللة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وأنشد أبو العيناء عن الأصمعي

النصح أرخص ما باع الرجال فلا * تردد على ناصح نصحا ولا تلم

ان النصائح لا تخفى منها هجها * على الرجال ذوى الألباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرره رأى أن ينبي في امضائه فان الزمان غادر والفرص

منتهزة والثقة عجز . وقيل للملك زال عنه ملكه ما الذى سلبك ملكك قال
 تأخيري عمل اليوم لغد . وقال الشاعر
 اذا كنت ذا رأى فكن ذاعزيمه * ولاتك بالترداد للرأى مفسدا
 فالى رأيت الريث فى العزم هجته * وانفاذ ذى الرأى العزيمة أرشدا
 وينبغى لمن أنزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول
 النجج مرجوا الصواب أن يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكافئ
 على الاستسلام ببذل النصيح . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
 قال « ان من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه أن ينصحه » وربما أبطرته
 المشاورة فأعجب برأيه فاحذر في المشاورة فليس للعجب رأى صحيح ولا روية
 سليمة وربما شح في الرأى لعداوة أو حسداً أو مكر فاحذر العدو ولا تثق
 بحسود ولا عذر لمن استشاره عدواً أو صديقاً أن يكتم رأياً وقد استرشد
 ولأن محزون وقد أوتى . روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها
 أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المستشار معان والمستشار مؤتمن .
 وقال سليمان بن دريد

وأجب أهلك اذا استشارك ناصحا * وعلى أخيك نصيحة لا تردد
 ولا ينبغى أن يشير قبل أن يستشار الا فيما س ولا أن يتبرع بالرأى الا فيما
 لزم فإنه لا ينقل من أن يكون رأيا متهماً أو مطرماً وفي أى هذين كان وصمة
 وانما يكون الرأى مقبولاً اذا كان عن رغبة وطالب أو كان لباعث وسبب .
 روى أبو بلال الجبلى عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
 قال « قال لقمان لابنه يا بني اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فأعن واذا
 استشرت فلا تعجل حتى تنظر » . وقال بهس الكلابى

من الناس من إن يشترك فجتهد * له الرأي يستغشك ما لا يتابعه
 فلا تمنحن الرأي من ليس أهله * فلا أنت محمود ولا الرأي نافع
 (الفصل الرابع في كتمان السر) اعلم أن كتمان الاسرار من أقوى
 أسباب النجاح وأدوم لحوال الصلاح . روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم أنه قال « استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود »
 وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سرك أسيرك فان تكلمت به صرت
 أسيره . وقال بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق
 ضئيلا بالاسرار عن جميع الخلق فان أجد جود المرء الانفاق في وجهه البر
 والبخل بمكتوم السر . وقال بعض الأدباء من كتم سره كان الخيار إليه
 ومن أفشاه كان الخيار عليه . وقال بعض البلغاء ما أسرك ما كتبت سره .
 وقال بعض الفضلاء ما لم تغيبه الا ضاع فهو مكشوف ضائع . وقال
 أنس بن أسيد

ولا تفش سر الأليث * فان لكل نصيح نصيحا

فاني رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيفا

وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتبه كان
 من سطوته آمنا وفي عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا . وقال
 أنوشروان من حصن سره فله بتحصيله خصلتان الظفر بحاجته والسلامة
 من السطوات واطهار الرجل سر غيره أفصح من اظهار سر نفسه لانه
 يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النيمة ان كان مستودعا
 فأما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما مالموم .
 وفي الاسترسال بإبداء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة . احداها

ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر .
وقال الشاعر

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولا م عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

والثانية - الغفلة عن تحذر العقلاء والسهموعن يقظة الاذكياء . وقد
قال بعض الحكماء ان فرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون .
والثالثة - ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر . وقد قال بعض
الحكماء سر ك من دمك فاذا تكلمت به فقد أرقته * واعلم أن من الاسرار
ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليحتر
العاقل لسره أمينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحرر في اختيار من يأتمنه
عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال أمينا كان على الاسرار
مؤتمنا والعفة عن الأموال أيسر من العفة عن اذاعة الاسرار لأن
الانسان قد يذيع سر نفسه بعبارة لسانه وسقط كلامه ويشخ باليسير
من ماله حفظه وضمائه ولا يرى ما أضع من سره كبير افي جنب ما حفظه
من يسير ماله مع عظم الضرر الداخلى عليه فن أجل ذلك كان أمناء الأسرار
أشد تعذرا وأقل وجودا من أمناء الاموال وكان حفظ المال أيسر من
كتم الاسرار لأن أحرار الاموال منيعة وأحرار الأسرار بارزة يذيعها لسان
ناطق ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
القلوب أوعية الأسرار والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل
امرئ مفتاح سره . ومن صفات أمين السر أن يكون ذاعقل صاد ودين
حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه الأمور تمنع من

الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كذبت فيه فهو عنقاء مغرب . وقيل
في منشور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر أن
يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن .
وقال صالح بن عبد القدوس

لاتدع سرا الى طالبه * منك فالطالب للسرمذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى
الاشاعة لأمرين . أحدهما أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير
معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخبل ببعضها . والثاني
أن كل واحد منهم يجسب سبيلا الى نفي الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره
فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء
كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا . وقال بعض الشعراء
وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي
وقال آخر فلا تنطق بسر كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشي

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتم فان لمن ظفر بسر من
فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل
كان أشد من ذل الرق وخضوع التعبد . ولذلك قال بعض الحكماء من
أفشى سره ~~كثرت~~ عليه المتأمرون فاذا اختار وأرجو أن يوفق للاختيار
واضطر الى استيداع سره وليتبه كفي الاضطرار وجب على المستودع له أداء
الأمانة فيه بالحفظ والتناسي له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له في خلد ثم
يرى ذلك حرمة برعاها ولا يدل ادلال اللثام . وحكى أن رجلا أسرى صديق
له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت .

وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال أبجد المخبر وأحلف الاستخبر .
وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * مني الضلوع على الأسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سرائره * إذ كنت من نشرها يوما على خطر
(١) وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال ابنه
ومستودعي سرائرنا ضمنت سره * فأودعته من مستقر الحشا قبرا
ولكننى أخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما أحطت به خبرا
وما السر في قلبى كيت بحفرة * لأنى أرى المدفون ينتظر النشرا

﴿ الفصل الخامس فى المرازح والضحك ﴾ اعلم أن المرازح ازاحة عن
الحقوق ومخرجها الى القطيعة والعقوق يصم المرازح ويؤذى المرازح
فوصفة المرازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء
وأما أذية المرازح فلأنه معقوق بقول كرهه وفعل ممض ان أمسك عنه
أحزن قلبه وان قابل عليه جانب أدبه فحق على العاقل أن يتقيه وينزه
نفسه عن وصفة مساويه . وقدر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
« المرازح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى » . وقال عمر بن
عبد العزيز اتقوا المرازح فإنه حقة تورث ضغينة . وقال بعض الحكماء
انما المرازح سباب الا أن صاحبه يضحك وقيل انما سمي المرازح مزاحا لانه

(١) لا يخفى ما فى هذه الايات من الاضطراب وعدم التماسك . والرواية الصحيحة ما ذكره
الصفدى فى شرح لامية العجم نقلا عن صاحب هذا الكتاب قال مانصه . وحكى الماوردى
أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال

ومستودعي سرائرنا ضمنت سره * فأودعته من مستقر الحشا قبرا

فقال ابنه عبد الله وهو صدى

وما السر فى قلبى كئناو بحفرة * لأنى أرى المدفون ينتظر الحشرا

ولكننى أخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما أحطت به خبرا

كتبه أحمد ابراهيم

يزيح عن الحق . وقال ابراهيم النخعي المزاح من سخف أو بطر . وقيل
 في منشور الحكم المزاح يأكل الهيبة كإنا كل النار الحطب . وقال بعض
 الحكماء من كثر حزن أحده زالت هيئته ومن كثر خلافه طابت غيبته . وقال
 بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله . وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال
 يصلك أحدكم صاحبه بأشد من الجنيدل وينشقه أحرف من الخردل
 ويفرغ عليه أحر من المرجل ثم يقول انما كنت أما زحك . وقال بعض
 الحكماء خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه البيسبوري في قصيدته
 الجامعة للأدب فقال وزاد

شر مزاح المرء لا يقال * وخيره يا صاح لا ينال
 وقد يقال كثرة المزاح * من الفتى تدعو الى التلاحى
 ان المزاح بدؤه حلاوه * لكنما آخره عداوه
 يحتد منه الرجل الشريف * ويجترى بسخفه السخيف
 وقال أبو نواس

خسل جنبك لرام * وامض عنه بسلام
 مت بداء الصمت خير * لك من داء الكلام
 انما السالم من آل * جهم فاه بلجـام
 ربما استفتح بالمرز * ح مغاليق الحمام
 والمنايا آكلات * شارات للأنام

واعلم أنه كلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه إحدى
 حالتين لئلا يثقل لهما . أحدهما اناس المصاحيين والتودد الى المخالطين
 وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل .
 وقد قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الإفراط فيه يذهب
 البهاء ويجترى عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين
 ويوحش منك المصاحيين . والحالة الثانية أن ينقى بالمزاح ما طرأ عليه

من سأم وأحدث به من هم فقد قيل لا بد للصدور أن ينفث . وأنشدت
لأبي الفتح البستي

أفد طبعك المكدود بالجذراحة * يحجم وعلاه بشئ من المـزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن * بقدر ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله
عليه وسلم أنه قال « إني لأمزح ولا أقول الاحقا » فنزاحه صلى الله
عليه وسلم ما روى أن عجزا من الانصار أتته فقالت يا رسول الله ادع على
بالمغفرة فقال أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقال أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل « انا
أنشأناهن أنشاء فجعلناهن أبكارا عربيا أترابا » وأتته أخرى في حاجة
لزوجه فقال لها ومن زوجك فقالت فلان فقال لها الذي في عينه بياض
فقالت لا فقال بلى فأنصرفت عجلي الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال
لها ما شأنك فقالت أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في عينيك بياضا
فقال أما ترى بياض عيني أكثر من سوادهما . وسئل الشعبي عن أكل
لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأة ابليس
لعنه الله فقال ذلك نكاح ما شهدناه وقال رجل لعلام بكم تعمل معي قال
بطعامي فقال له أحسن قليلا قال فأصوم الاثنين والخميس . وقد كان أبو
هريرة رضى الله عنه مسترسلا في مزاحه . وروى ابن قتيبة في المعارف
أن مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب جارا قد شد عليه برذعة
فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد جاء الأمير وربما أتى الصبيان وهم
يلعبون لعبة الأعراب فلا يشعرون حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجله

فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك
 أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ . وقد كان صهيب بن سنان مزاحاً
 فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «أنا كثر تمرأوبك رمد فقال يا رسول الله
 إنما مضغ على الناحية الأخرى» وإنما استجاز صهيب أن يعرض
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لأن استخباره صلى الله عليه
 وسلم قد كان يتضمن المزح فأجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه
 وتقرّباً من قلبه والافليس لأحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم من حال المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 المين عن الله عز وجل أحكامه المؤدى إلى خلقه أو امره هزلاً ومزحاً فقد
 عصى الله ورسوله وصهيب كان أطوح لله سبحانه وتعالى من أن يكون
 بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم «أنا سابق العرب وصهيب سابق
 الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش» وليذكر أن يسترسل
 في ممازحة عدو فيجعل له طريقاً إلى إعلان المساوى هزلاً وهو مجتهد ويقسح
 له في التشفي من حاو هو محق . وقد قال بعض الحكماء إذا ما زحت عدوك
 نظرت عيوبك . وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور
 المهمة مذهب عن التفكير في النوائب الملهة وليس لمن أكثر منه هيبته ولا وقار
 ولأنه يسم به خطر ولا معة . دار . روى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر
 الغفاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أياك وكثرة الضحك فإنه
 عيت القلب ويذهب بنور الوجه» . وروى عن ابن عباس في قوله تعالى
 «ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» أن الصغيرة
 الضحك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كثر ضحكك قلت هيبته .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم ضحكة عجز من العلم
 حجة . وقيل في منشور الحكم ضحكة المؤمن غفلة من قبله والقول في
 الضحك كالقول في المزاح ان تحافاه الانسان نفر عنه وأوحش منه وان ألفه
 كانت حاله ما وصفناه فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وبشرا .
 وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه التيسم دعابة وهذا أبلغ في الايناس
 من الضحك الذى قد يكون استهزاء وتعبجا وليس ينكر منه المرة السادرة
 لطارئ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك
 الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه
 وسلم على الوجه الذى ذكرناه

﴿ الفصل السادس فى الطيرة والغال ﴾ اعلم أنه ليس شئ أضر بالرأى
 ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب
 يرد قضاء أو يدفع مقادورا فقد جهل . وقد روى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم أنه قال « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » . فالعدوى
 ما يظنه الناس من تعدى العلل والأمراض فأخبر أنهم لا تعدى فقيل
 يا رسول الله انازى النقبسة من الجرب فى مشفر البعير فتعدى الى جميعه
 فقال صلى الله عليه وسلم فإعدى الأول وأما الهامة فهو ما كانت العرب
 فى الجاهلية تعتقده من أن القتل اذا طل دمه فلم يدركه ينأره صاحب هامته
 فى القبر اسقونى . قال الزبير بن زبير عن النبي

(١) يا عمرو ان لا تدع شتى ومنقصتى * أضر بك حتى تقول الهامة اسقونى

(١) اصواب هذا البيت لدى الاصابع العذرائى وهو شاعر جاهلى قديم كما فى خزامة
 الادب الكبرى للبغدادى والشواهد الكبرى للعيني والاتعالى لآبى الفرج مع اختلافى
 بسير فى الرواية كتبه أحمد ابراهيم

وقال ابراهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبرا * يصبح صداها بالعشى وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة * سريع الى ورد الفناء كرامها
وأما الصفر فهو كالحمية يكون في الجوف يصيب المشية والناس وهو أعدى
عندهم من الحرب وفيه يقول الشاعر

لا يمسك الساق من أين ولا وصب * ولا يعض على شرسوفه الصفر
وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اذا
ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله
فتوكلوا » وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء * فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
أى يوم تخصه بسعود * والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود * ونحو من تجرى لقوم وقوم
وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا أرادت سفرا انفرت
أول طائر تلقاه فان طار عينة سارت وتيمنت واذا طار يسرة رجعت
وتشاءمت فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال « أقرؤا الطير على
وكلماتها » . وحكى عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضي الله عنهما ففرط طائر
يصبح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر . وقال لبيد
لعمر ك ما تدرى الضوارب بالحصى * ولا زاجرات الطير ما الله صانع
واعلم أنه كلما يخلو من الطيرة أحد لا سيما من عارضته المقادير في ارادته وصدته
القضاء عن طلبته فهو يرجو واليأس عليه أغلب و يأمل والخوف اليه أقرب
فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبتها وغفل عن قضاء الله
عز وجل ومشيئته فاذا تطيرا أجم عن الاقدام ويئس من الظفر وطن أن

القياس فيه مطرد وأن العسرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويل على سعادته فلا يصدّه خوف ولا يكفه خور ولا يؤب الاظفرا ولا يعود الامتخا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاجسام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من أمارات الاقبال فينبغي لمن معنى بها وبلى أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعى الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائه ومعارضته خالقه ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب وأن رزقه له طالب وأن الحركة سبب فلا يشبهه عنهما ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليض في عزائه واثقا بالله تعالى ان أعطى وراضيا به ان منع . فقد روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من الظن أن لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لا يبغى . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى . وقيل في منشور الحكم الخيرى ترك الطيرة وليقل ان عارضه في الطيرة ريب أو خامر فيها وهم ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تطير فليقل اللهم لا يأتي بالخيرات الا أنت ولا يدفع السيئات الا أنت ولا حول ولا قوة الا بالله » . وقد روى أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اننا نزلنا دارا فكثرت فيها أعدنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحولنا عنها الى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها أعدنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها فهي ذميمة وايس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولاكن

على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما أنس به
وأما الفأل ففيه تقوية للعزم وباعث على الجتد ومعونة على الظفر فقد
تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه . وروى أبوهريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فأعجبته فقال أخذنا فألك من
فيك فينبغي لمن تفاءل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء
الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل
بالنطق . روى أن يوسف عليه السلام شكالى الله تعالى طول الحبس
فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت رب السجن
أحب الى ولو قلت العافية أحب الى لعوفيت . وحكى أن المؤمل بن
أميل الشاعر لما قال يوم الحيرة

شف المؤمل يوم الحيرة النظر * آيت المؤمل لم يخلق له بصر

عنى فأتاه آت فى منامه فقال له هذا ما طلبت . وحكى أن الوليد بن يزيد بن
عبد الملك تفاءل يوماً فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وناب كل
جبار عنيد فزق المصحف وأنشأ يقول

أتوعد كل جبار عنيد * فهأنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر * فقل يا رب عزقتى الوليد

فلم يلبث إلا أياما حتى قتل شرقتله وصلب رأسه على قصره ثم على سور
بلده فنعوذ بالله من البغى ومضارعه والشيطان ومصايده وهو حسبنا
وعليه توكلنا

(الفصل السابع فى المروءة) اعلم أن من شواهد الفضل ودلائل الكرم
المروءة التى هى حليمة النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الاحوال التى

تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم
 باستحقاق . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من عامل الناس
 فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو من كملت
 مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته . وقال بعض البلغاء من
 شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف
 في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من
 لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر
 ما يعقبه الوزر والآثم ولا يفعل ما يقبح الذكروالاسم . وسئل بعض
 الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالانفع والمروءة
 تأمرك بالأجل

ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة
 مستغنية وإنما المراعاة هي المروءة لاما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق
 لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تتركب الافضل من
 خلائقها والاجل من طرائقها وان سلمت منها وبعيد أن تسلم الا لمن استكمل
 شرف الاخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكافا وتطبعها . وقال الشاعر
 من لك بالمحض وايس محض * يجبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعا وفي المعوز أن يكون مستكملا لكان في
 المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق
 المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا بالاعانة ولا يوقف عليه الا بالتفقد
 والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة واذا
 كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا لمن تسملت عليه المشاق

رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذر من الذم ولذلك قيل سيد القوم
أشقاهم . وقال أبو تمام الطائي

والحمد شهد لا يرى مشتاره * يجنيه الامن نقيع الخنظل
غلت لحامله ويحسبه الذي * لم يوه عاتقه خفيف المحمل
وقد لفظ المتنبي ذلك في قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود ي فقر والاقدام قتال
وله أيضا

وإذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الاجسام
والداعي الى استسهال ذلك شيثان أحدهما علو الهمة والثاني شرف النفس
أما علو الهمة فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص أنفة من نخول
الضعة واستنكار المهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله
يحب معالي الامور وأشرفها ويكره دنياها وفسفاسها . وروى عن عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لا تصغرن هممكم فاني لم أرا قعد عن
المكرمات من صغر الهمم . وقال بعض الحكماء الهمة راية الجدد .
وقال بعض البلغاء علو الهمم بذر النعم . وقال بعض العلماء اذا طلب
رجلان أمر اطفر به أعظمهما مروعة . وقال بعض الادباء من ترك
التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل جسيما . وأما شرف النفس فانه به
يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهديب لان النفس ربما
جمحت عن الافضل وهي به عارفة ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة
لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم
آثر . وقد قيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس

كانت للأدب طالبه وفي الفضائل راغبه فإذا ما زجها صارت طبعاً
ملائماً فمنا واستقرّ فأما من منى بعلا الهمة وسلب شرف النفس فقد صار
عرضة لأمر أعوزته آلته وأفسدته جهالته فصار كضرب يروم تعلم
الكتابة وأخرس يريد الخطبة فلا يزيد إلا جهاداً لا يجزا والطلب الأعوزا
وذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما هلك أمرؤ عرف قدره» . وقيل
لبعض الحكماء من أسوأ الناس حالاً قال من بعدت همته واتسعت
أمنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته . وقال أفنون التغلبي

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتقول له للشيء يا ليت ذالبا

لعمرك ما يدري أمرؤ كيف يتقى * إذا هولم يجعل له الله واقبا

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون
بها نعمة الله عليكم . وقيل في منشور الحكم المنى من بضائع النوى فإن
صادف بهمة حظانال به أملا كان فيما ناله كالغتصب وفيما وصل اليه
كالمتغلب إذ ليس في الحظوظ تقدير لحق ولا تميز لمستحق وانما هي
كالسحاب الذي يمسك عن منابت الأشجار الى مغاوص البحار وينزل
حيث صادف من خبيث وطيب فإن صادف أرضاً طيبة نفع وإن صادف
أرضاً خبيثة ضر كذلك الحظ ان صادف نفساً شريفة نفع وكان نعمة عامة
وإن صادف نفساً دنيسة ضر وكان نقمة طامة . وحكى أن موسى بن
عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحى اليه قد ملكت أسفلها على
أعلاها فقال يارب كنت أحب لهم عذاباً عاجلاً فأوحى الله تعالى اليه
أليس هذا كل العذاب العاجل الاليم . فأما شرف النفس إذا تجرد عن علو
الهمة فإن الفضل به عاطل والقدر به حامل وهو كالقوة في الجلد الكسل

والجبان الفشل تضع قوته بكسله وجلده بفشله وقد قيل في منشور
الحكم من دام كسله خاب أمره وقال بعض الشعراء

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها * هو أنا بها كانت على الناس أهونا

فنفسك أكرمها وان ضاق مسكن * عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا

وأيك والسكنى بمنزل ذلة * يعد سيئافيه من كان تحسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من

علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى

التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما

يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد

منهما من الذم نصيب . وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شئ على

الانسان قال أن يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامر ان واقترن

بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما طاهرا والادب بهما وافرا

ومشاق الحديثين ماسئلة وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحصين

ابن المنذر الرقاشي

ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فأضاعها

أمرته نفس بالدناءة والحنأ * ونهته عن سبيل العلا فأطاعها

فاذا أصاب من المكارم خلة * يبني الكريم بها المكارم باعها

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لان منها

ما يقوم في الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر

بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء شروطها إلا جلا يتنبه الفاضل لها ليحفظه ويستدل العاقل عليها بفطرتة وإن كان جميع ما تضمنته كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وإنما ذكر في هذا الفصل الأشهر من قواعدها وأصولها والأظهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين

أحدهما شروط المروءة في نفسه . والثاني شروطها في غيره . فأما شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه فيكون بثلاثة أمور وهي العفة والنزاهة والصيانة . فأما العفة فنوعان أحدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فأما العفة عن المحارم فنوعان أحدهما ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف اللسان عن الاعراض . فأما ضبط الفرج عن الحرام فلان عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرفة فاضحه وهتكة واضححه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «من وقى شر ذنبه ولقلقه وبقبقة فقد وقى» يريد بذنبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقة البطن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «أحب العفاف إلى الله تعالى عفاف الفرج والبطن» وحكى أن معاوية رضي الله عنه سأل عمرا عن المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال هي العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال هي الصبر على البأوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية أنت منى حقا . وقال أنوشروان لابنه هرمز الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم أخوانه . وقال بعض الحكماء من أحب المكارم اجتنب المحارم وقيل

عار الفضيحة يكدر لذتها . وقد أنشدني بعض أهل الأدب للحسن بن علي
رضي الله عنهما

الموت خير من ركوب العار * والعار خير من دخول النار

* والله من هذا وهذا جاري *

والداعي الى ذلك شيان أحدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة
وقد روى عن النبي عليه السلام انه قال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا علي
لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية عليك وفي قوله لا تتبع النظرة
النظرة تأويلان أحدهما لا تتبع نظري عينيك نظر قلبك والثاني لا تتبع
الاولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي توقعها عمدا . وقال عيسى
ابن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها ترزع في القلب
الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
العيون مصايد الشيطان . وقال بعض الحكماء من أرسل طرفه استدعى
حتفه . وقال بعض الشعراء

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كفه أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح
ومسولة الفضائح وليس عطب الا وهي له سبب وعليه ألب ولذلك قال
النبي عليه السلام «أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من
منه نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب» .
وقهرها عن هذه الاحوال يكون بثلاثة أمور أحدها غرض الطرف عن
إثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك . روى

سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «تقبلوا
الىّ بئس أتقبل اليكم بالجنة قالوا وماهى يا رسول الله قال اذا حدث
أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخف واذا ائتمن فلا يخون غصوا
أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم» . والثاني ترغيبها في الحلال
عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله ما حرم شيئا الا وأغنى عنه بما حرم
جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عوناً على طاعته
وحاجزاً عن مخالفته . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أمر الله تعالى
بشيء الا وأعان عليه ولأنهى عن شيء الا وأغنى عنه . والثالث اشعار
النفس تقوى الله تعالى في أوامره وانقاؤه في زواجره والزامها ما ألزم من
طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير
ولا يعزب عنه قطمير وأنه يجازى المحسن ويكافئ المسيء وبذلك نزلت
كتبه وبلغت رساله . روى ابن مسعود أن آخرا من أنزل من القرآن «واتقوا
يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» وآخر
ما نزل من التوراة «اذالم تستخ فاصنع ما شئت» وآخر ما نزل من الانجيل «شر
الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئا» وآخر ما نزل من الزبور «من يزرع خيرا
يحصد زرعه غبطة» فاذا أشعرها ما وصفت انقلدت الى الكف وأدعنت
بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط . وأما كف اللسان عن
الاعراض فلأن عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء وهو مستسهل
الكف واذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صادتلبط بمعارته وتخبط
بمضاره وظن أنه لتجافى الناس عنه حتى يتقى ورتبة ترتقى فهلك وأهلك
فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «ألا ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم

حرام عليكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لمافيه من ايغار الصدور
وابداء الشرور واطهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يبقى مع هذه الامور
وزن لموموق ولا مروءة للحوظ ثم هو بها موقور موزور ولا جملها مهجور
من جور . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « شر الناس من
أكرمه الناس انقاء لسانه » . وقال بعض الحكماء انما هلك الناس بفضول
الكلام وفضول المال . وما قدح في الاعرض من الكلام نوعان
أحدهما ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوز به الى غيره وذلك شيان
الكذب ونفس القول . والثاني ما تجاوزه الى غيره وذلك أربعة أشياء
الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أو شتم وربما كان السب أنسها
للقلوب وأبلغها أثرا في النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق
تشديدا وتصعبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يصد عن سفه أو
بذاء يحدث عن لوم . وقد روى أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال « المؤمن غر كريم والفاجر خب أثيم » . وقال ابن المقفع
الاستطالة لسان الجهالة . وكف النفس عن هذه الحال بما يصد هان
الزواج رأسه وهو بذوى المروءة أجل فهذا شرط . وأما العفة عن
المآثم فنوعان أحدهما الكف عن المجاهرة بالنظر والثاني زجر النفس
عن الاسرار بخيانة . فاما المجاهرة بالنظر فعتو مهلك وطغيان متلف وهو
يؤول ان استمر الى فتنة أو جلاء فاما الفتنة في الاغلب فتحيط بصاحبها
وتنعكس على البادئ بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى
« ولا يحق المكر السيء الا بهله » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال « الفتنة نائمة فن أيقظها صار طعاما لها » . وقال جعفر بن محمد الفتنة

حصار للظالمين . وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة أقرب شئ أجالا
وأسوأ شئ عملا . وقال بعض الشعراء

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها * الى مديته تحت الثرى تستيرها
وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنته
جلاء وفناء كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكثها شياً
حتى اذا أفنت ما وجدت اضمحلت ونجحت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك
والباعث على ذلك شيان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبي عليه السلام
« اطلبوا الفضل والمعروف عند الرجاء من أمتي تعيشوا في أكنافهم »
والصانع ذلك أن يرى آثار الله تعالى في الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصور
عواقب ظلمهم فان فيها من دجرا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال « من أصبح ولم ينو ظم أحد غفر الله له ما اجترم » . وروى جعفر بن
محمد عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا على اتق
دعوة المظلوم فانه انما يسأل الله حقه وان الله لا يمنع ذاحق حقه » . وقيل
في منشور الحكم ويسل للظالم من يوم المظالم . وقال بعض البلغاء من جار
حكمه أهلكه ظلمه . وقال بعض الشعراء

وما من يد الا يد الله فوقها * ولا ظالم الا سبلى بظالم

وأما الاسرار بالخيانة فضعة لأنه ببذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين
وقيل في منشور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربيعي قرأت في بعض
الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان
يكفر والرحم تقطع والبغى على الناس ولولم يكن من ذم الخيانة الا
ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاد زاجرا ولتصور عقي أمانته

وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدمه مع
 ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام . وقد روى عن النبي
 صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا الأمانة إلى من ائتمك ولا تخن من خانك »
 وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية « ومن أهل الكتاب من إن
 تأمنه بقنطار يؤثمه إليك منهم من إن تأمنه بدينار لا يؤثمه إليك إلا ما دمت
 عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » يعنون أن أموال
 العرب حلال لهم لأنهم من غير أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه الله
 وسلم كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا
 الأمانة فأنها مؤداة إلى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهره من الأمانة زورا
 ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون
 مع هتكه للتدليس أقبح والمعرة الرياء أفضح . وقد روى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم أنه قال « لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما والصدقة
 مغرما » وقال بعض الحكماء من التمس أر بعابا أربع التمس ما لا يكون
 من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة
 التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن
 التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون . والداعي إلى الخيانة شيطان
 المهانة وقلة الأمانة فإذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته
 فهذا شرط قد استوفيتا فيه أقسام العفة . وأما النزاهة فنوعان
 أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فاما
 المطامع الدنية فلأن الطمع نل والدناءة تلوم وهما أدفع شيء للرؤية وقد كان

النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم انى أعوذ بك من طمع يهدى
الى طمع . وقال بعض الشعراء

لا تخضعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيان الشره وقسلة الانفة فلا يقنع بما أوتى وان كان
كثيرا لاجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقيرا لقله أنفته وهذه
حال من لا يرضى لنفسه قدرا ويرى المال أعظم خطرا فيرى بذل أهون
الامر من لاجلها مغنا وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه
أقل اصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب . وروى أن رجلا قال يا رسول الله
أرصنى قال عليك باليأس مما فى أيدي الناس وإياك والطمع فإنه فقر حاضر
وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع وإياك وما يعتذر منه . وقال بعض
الشعراء

ومن كانت الدنيا مائة وهمه * سبته المني واستعبده المطامع

وحسب هذه المطامع شيئا اليأس والقنائة . وقد روى عبد الله بن
مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اروح القدس نفت في روعي
أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجروا فى الطلب ولا يحملنكم
إبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى فان الله عز وجل لا يدرك
ما عنده الا بطاعته » فهذا شرط . وأما مواقف الريسة فهى التردد بين
منزاتى حمد و ذم والوقوف بين حالتى سلامة وسقم فتتوجه اليه لأئمة
المتوهمين ويناله ذلة المرييين وكفى بصاحبهم موقفا ان صح افتضح وان
لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « دع ما يربيك الى ما لا

يريبك . وسئل محمد بن علي عن المروعة فقال أن لا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية وقال حسان بن أبي سنان ما وجدت شيئاً هو أهون من الورع قيل له وكيف قال إذا ارتبت بشئ تركته . والداعي إلى هذه الحال شيئان الاسترسال وحسن الظن والمنازع منهم شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الخواريين وقد خرج من منزل امرأه ذات فجور فقال يا روح الله ما تصنع هنا فقال الطيب انما يداوى المرضى ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقاً إلى الاسترسال ولا يمكن الحذر عليه أغلب وإلى الخوف من تصديق التهم أقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها وكان معتكفاً فتر به رجلاً من الانصار فلما رآه أسرع فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حبي فقالا سبحان الله أوفيلك شك يا رسول الله فقال له ان الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف في قلبي كما سوا فبكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعزى في مواقف الريب من قادح محقق ولا ثم مصدق . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد » واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدهح في عرضه إفك . وقد قال الشاعر

أصونك أن أدل عليك تطنا * لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف . وقال
بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع وأنشدنى
بعض أهل الادب لابي بكر الصولى رحمه الله قوله

أحسن ظنى بأهل دهرى * فحسن ظنى بهم دهانى

لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الامن الامان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعى النزاهة . وأما الصيانة وهى الثالث من
شروط المروءة فنوعان أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير
مادتها والثانى صيانتها عن تحمل المن والاسترسال فى الاستعانة
فأما التماس الكفاية وتقدير المادّة فلان المحتاج الى الناس كل مهتضم
وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده ليقيم أود نفسه
ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب فى أمثالها كلب جوال خير من
أسد رابض . وما يستمده نوعان لازم وندب . فاما اللازم فاقام
بالكفاية وأفضى الى سد الحاجة وعليه فى طلبه ثلاثة شروط . أحدها
استطابته من الوجوه المباحة وتوفى المحظورة فان المواد المحرمة مستحسنة
الاصول محبوبة المحصول ان صرفها فى بر لم يؤجر وان صرفها فى مدح
لم يشكر ثم هو لأوزارها محتقّب وعلما معاقب . وقد قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم «لا يعجبك رجل كسب ما لا من غير حله فان أنفقه لم يقبل
منه وان أمسكه فهو زاده الى النار» . وقال بعض الحكماء عشر المال
ما لمك اثم مكسبه وحرمت أجر انفاقه . ونظر بعض الخوارج الى

رجل من أصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم
من سيئاتهم . وقال علي بن الجهم

سرّ من عاش ماله فاذا ما * سبه الله سرّ ما الاعدام

والثاني طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غرض ولا يتدنس له بها
عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفس
لا لاذلالها . وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يا حباذا المال
أصون به عرضي وأرضى به ربي . وقال أبو بشر الضري

كفى حزنا أني أروح وأغتدي * ومالي من مال أصون به عرضي

وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخواجج من
حسان الوجوه » فقال معناه من أحسن الوجوه التي تحل . والثالث أن
يتأني في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل
فان يسير المال مع حسن التقدير وصابه التدبير أجدي نفعاً وأحسن
موقعاً من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبنذر في الارض اذا
روعى يسيره زكاً وان أهمل كثيره اضمحل . وقال محمد بن علي رضي
الله عنه الكمال في ثلاثة العفة في الدين والصبر على النوائب وحسن
التدبير في المعيشة . وقيل لبعض الحكماء فلان غني فقال لا أعرف ذلك
مالم أعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمد من قدر
الكفاية فقد أدّى حق المروءة في نفسه . وسئل الاحنف بن قيس عن
المروءة فقال العفة والحرفة . وقال بعض الحكماء لابنه يا بني لا تكن
على أحد كلاً فابك تزداد ذلاً واضرب في الارض عوداً وبدأ ولا تأسف

لمال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لو صب ولا نصب فهذا حال اللازم
وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الالوية يرون ما وصل الى الانسان
كسبا أفضل مما وصل اليه ارنالانه في الارث في جدوى غيره وبالكسب
مجد الى غيره و فرق ما بينهما في الفضل ظاهر وقال كشاحم
لأستلذ العيش لم أدأبه * طلبا وسعيافى الهواجر والنيلس
وأرى حراما أن يؤاتنى العنى * حتى يحاول بالعباء ويلتمس
فأصرف نوالك عن أخيك موفرا * فالبيت ليس يسيغ الاما افترس
وأما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه
معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن
مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفاء فسيبها ما كفاه فليس في
الزيادة الاشره ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم . وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم «خير الرزق ما يكتفى وخير الذكر الخفى» . وقال علي بن
أبي طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل . وقال عبد الله بن مسعود
المستغنى عن الدنيا بالدنيا كطفئ النار بالتبن . وقال بعض الحكماء اشتر
ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا ابتجافها عن الكرام . فان كان
همن منى بعد لوانهم وتحركت فيه أريحية الكرم وآثر أن يكون رشا
مقدما وأن يرى في النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تقفه حتى يكون
ماله فاضلا ونائله فائضا فقد قيل لبعض العرب ما المروة فيكم قال طعام
مأ كول ونائل مبذول وبشر مقبول . وقد قال الاخنف بن قيس
قلومند سروي بحال كثير * لحدت وكنت له باذلا
فان المروة لا تستطاع * اذالم يكن مالها فاضلا

وأما صيانتها عن تحمل المن والاسترسال في الاستعانة فلان المنة استترفاق
الأجر تحدث ذلة في الممنون عليه وسطوة في المان والاسترسال في
الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان . وقال
رجل لعمر رضي الله عنه خدمك بنوك فقال أغناني الله عنهم . وقال علي
ابن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن في وصيته له يا بني ان استطعت
أن لا يكون بينك وبين الله ذونعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك
الله حرا فان اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وان
كان كل منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدهاقين ما المرءة فيكم قال اجتناب
الريب فانه لا ينبل مريب . واصلاح الرجل ماله فانه من مروءته وقيامه
بحوائجهم وحوائج أهله فانه لا ينبل من احتياج الى أهله ولا من احتياج أهله
الى غيره وأنشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاءه * وأخوال الحوائج وجهه مملول

وأخولك من وفرت ما في كيسه * فاذا عبت به فأنت ثقيل

وان كان الناس لجة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعدة
والمظافر فاما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤون فيه ولا يتفاضلون وربما
كان المستعين فيه مفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده
والمزارع بأكرته فليس من هذا بد ولا لأحد عنه غنى وانما الذي يتصون
عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن أن يستعينوا لئلا يكون
عليهم يد ويسارعون أن يعينوا لأن يكون لهم يد ومن أقدم من غير اضطرار
على الاستعانة بجاه أو جمال فقد أوهى مروءته واستبدل صيانته ومن
دعا الاضطرار لنائب ألم أو حادث هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من

خفاق كربه و يتخلص به من وفاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان أغنته
الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذوله في التعرض للمال ويعدل
الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم أنجح وهي عليهم أسهل وهم لذلك
مندوبون فهم لا يجدون لهم مساويا ولا يصبرن على ابطائهم فان تراكم
الامور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذلك قيل قدم حاجتك بعض
لجأجتك . وقال أبو سارة سحيم بن الاعرف

تعدّ قرابة وتعدّ صهرا * ويسعد بالقرابة من رعاها
وما زرتك من عدم ولكن * يهش الى الامارة من رجاها
وأيا ما فعلت فان نفسى * تعدّ صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الاعمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة
فسحة لكن ان وجدته قرضا مردودا لم يأخذه صلبة وجودا فان القرض
مستسمح به في المروآت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما اعلى الله
من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه
وسلم « من أعياه رزق الله تعالى حلالا فلا يستدن على الله وعلى رسوله » وقال
صلى الله عليه وسلم « المستدين تاجر الله في أرضه » . وقال البخارى
ان لم يكن كثر فقل عطية * يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضا
أو لم يكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا
ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رقا الفضال . وقد روى عن علي بن أبي
طالب رضى الله عنه أنه قال من أراد البقاء والبقاء فليباكر الغداء وليخفف
الرداء قيل وما في خفة الرداء من البقاء قال قلة الدين فان أعوزه ذلك

الاسمنا حافهـ والرق المذل ولذلك قيل لا مروءة لقل . وقال بعض الحكماء من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وجلالته . والذي يتساءل به الباقي من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذي رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة أمور هي جهد المضطر أحدها أن يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيبدل بالشرع ويحرم بالابهة . وليكن من التجميل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجميل . وأنشد بعض أهل الادب لعلي بن الجهم

هي النفس ما حملتها تحمل * والدهر أيام تجور وتعديل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة * وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن الحر نعمة * ولكن عارا أن يزول التجميل
والثاني أن يقتصر في السؤال على ما دعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاعتنام فيجرب باعتنامه ولا يعذر في ضرورته وقد قال بعض الحكماء من ألف المسئلة ألفه المنع . والثالث أن يعذر في المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعمالائك وان أجيب فالى مالا يستحق . فقد قال النمر بن توب

لا تغضب بن علي امرئ في ماله * وعلى كرائم صلب مالك فاغضب
والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسئلة أهلا وكان النجج عنده مولا فان ذوى المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «الخير كثير وقليل فاعله» . والمرجول الاجابة من تكاملت فيه خصالها وهي ثلاث . احدها من كرم الطبع فان الكريم مساعد والثلث معانده

وقد قيل المخذول من كانت له الى اللثام حاجة . والثانية سلامة الصدر فان
العدو والب على نكبتك وحرب في نائبتك وقد قيل من أوغرت صدره
استدعت شره فان رقلك بكرم طبعه ورجلك بحسن ظفره فأعظم بها
محنة أن يصير عدوك لك راجا . وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ * ترى حاسديه له راجينا
والثالث ظهور المكنة فان من سأل ما لا يمكن فقد أ حال وكان كاستنص
المسجون ومنسحق المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا .
وقد قال على كرم الله وجهه من لا يعرف لاحتى يقال له لافه وأجق
ووضى عبد الله بن الاهتم ابنه فقال يا بنى لا تطلب الخواجج من غير أهلها
ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما استله مستحقا فانك ان فعلت ذلك
كنت حقيقا بالحرمان . وقال الشاعر

ولا تسألن امرأ حاجة * يحاول من ربه مثلها
فبترك ما كنت جلتة • ويبدا بحاجته قبلها
فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه . وأما شروط المروءة في غيره فتلاثة
الموازرة والمياسرة والافضال . أما الموازرة فنوعان أحدهما الاسعاف
بالجاه والثانى الاسعاف فى النوائب . فأما الاسعاف بالجاه فقد يكون
من الأعلى قدرا والافذأمرأ وهو أرخص المكارم ثمنا وألطف الصنائع
موقعا وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل الذى يلجأ اليه المضطرون
والحجى الذى يأوى اليه الخائفون فان أوطأه اتسع بكثرة الانصار والشيعة
وان قبضه انقطع بنفور العاشية والتبع فهو بالبذل ينمى ويزيد وبالکف
ينقص ويبعد فلا عذر لمن منح جاها أن يبخل به فيه كون أسوأ حالا من البخل

بماله الذي قد يعد له انوائبه ويستبقيه للذته ويكنزه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه قد اضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيه مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائت وأسفا على ضائع ومقتا يستحکم في النفوس وذما قد ينتشر في الناس . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الخلق كاهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى اليه أحسنهم صنيعا الى عياله » . وقال بعض الحكماء اصنع الخير عند ما كانه يتق لك حجه عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك . وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض الادباء بذل الجاه أحد الجباءين . وقال ابن الاعرابي العرب تقول من أمل شيأها به ومن جهل شيأها به وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو يأتع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق . وأنشد بعض الادباء لعلي بن عباس الرومي رحمه الله

لا يبذل العرف حين يبذله * كشتري الحمد أو كعتاضه

بل يفعل العرف حين يفعله * لجوهر العرف للأعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الاجر . أحدها أن يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولا حسانه متسخطا . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه » فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . والثاني

حجابه الاستطالة وترك الامتنان فانهم ما من لؤم الطبع وضيق الصدر
وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر . وقد قيل للحكيم اليوناني من
أضيق الناس طريقا وأقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعجوس وجهه
واستطال عليهم بنفسه . والثالث أن لا يقرب من عسكورس عهده تقربا
بذنب ولا توب يخاف على هفوة فلا يفي مفضل التوب يخاف بدراك التوبج ويصير
الشكر وجدوا والحمد عيبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «أقربوا ذوى
الهيآت عثراتهم» وقال النابتة الجعدى

ألم تعلم أن الملامة نفعها * قليل اذا ما الشئ ولى فأدبرا

وأما الاسعاف فى النوائب فلا أن الأيام غادره والنوازل غاثره والحوادث
عارضه والنوائب راكضه فلا يعذر فيها الا عليم ولا يستنقذ منها الا سليم
وقد قال عدى بن حاتم

كفى زاجر المرء أيام دهره * تروح له بالوا عظات وتغتدى

فاذا وجد الكرم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف
فيهما استطاع سبيل اليه ووجد قدرة عليه . روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال خير من الخير معطيه وشر من الشرف اعله . وقيل لبعض
الحكماء هل شئ خير من الذهب والفضة قال معطيهما . والاسعاف
فى النوائب نوعان واجب وتبرع . فاما الواجب فما اختص بثلاثة
أصناف وهم الاهل والاخوان والخييران أما الاهل فللماسة الرحم
وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج أهله الى غيره . وقال
حسان بن ثابت

وان امر أنال المنى لم ينل به * قريبا ولا حاجة لزهد

وان امرأ عادى الرجال على الغنى * ولم يسأل الله الغنى لحسود
وأما الاخوان فلمستحكم الود ومتأ كد العهد . وسئل الاحنف بن
قيس عن المروءة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذ كر الله
تعالى فى كل مكان . وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق أن يبذل
لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب . ورأى
بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما فقبلهما صديقان
فقال ما بال أحدهما فقير والاخر غنى . وأما الجار فلدنوداره واتصال
مزاره قال على كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى بل الصبر
على الاذى . وقال بعض الحكماء من أجار جاره أعانه الله وأجاره . وقال
بعض البلغاء من أحسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره . وقال
بعض الشعراء

وللجار حق فاحترز من أذاته * وما خير جار لا يزال مؤاذيا
فيجب من حقوق المروءة وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة تحمل أن تقالهم
واسعافهم فى نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة عند ظهور المكنة أن يكلمهم
الى غيره أو يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل نفسه عنهم فانهم عيال كرمه
وأضياف مروءته فكما أنه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه الى
الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه وأضافته مروءته . وقال بعض
الشعراء

حق على السيد المرجو نائله * والمستجار به فى العرب والعجم
أن لا ينيل الا قاصى صوب راحته * حتى يخص به الأدنى من الخدم
ان الفرات اذا جاشت غواربه * روى السواحل ثم امتد فى الامم

وأما التبرع فممن عدا هؤلاء الثلاثة ممن البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض في حوادثهم وتكفل بنوائهم - فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرياسة . وقيل لبعض الحكماء أى شئ من أفعال الناس يشبه أفعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا عما لزم فاللوم ما لم يلجأ اليه مضطرا لان القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فينا حكم الموازنة . وأما المياسرة فنوعان أحدهما العفوعن الهفوات والثانى المسامحة فى الحقوق . فأما العفوعن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو ووزلل ولا سلام من نقص أو خلل ومن رام سلما من هفوه والتمس بريثا من نبوه فقد تعدى على الدهر بسطه وخادع نفسه بغلظه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا . وقد قالت الحكماء لا صديق لمن أراد صديقا لا يعيب فيه . وقيل لانوشروان هل من أحد لا يعيب فيه قال من لا موته واذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما أحب وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ومياسرة اخوانه فى الصفح والاغضاء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «ان الله تعالى أمرنى بمداواة الناس كما أمرنى بأداء الفرائض» . وقال بعض الأدباء ثلاث خصال لا يجتمع الا فى كريم حسن المحضرواحتمال الزلة وقسلة الملل . وقال ابن الرومى

فعدرك مبسوط لذنب مقدم * وودك مقبول بأهل ومرحب
ولو بلغتني عنك أذنى أقمها * لدى مقام الكاشح المتكذب
فليست بتقليب اللسان مصارما * خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

وإذا كان الأعضاء حتما والصفيح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر
الذنب . والهفوات نوعان صغائر وكبائر . فالصغائر مغفوره
والنفوس بهامعذوره لان الناس مع أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة
لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقيما . وقد قال
بعض العلماء من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعاً ثم حصده في غير
أوانه وقال أبو العتاهية

وشرا الاخلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم

يريك النصيحة عند اللقاء * ويبريك في السريري القلم

وأما الكبائر فنوعان أن يهفو بها خاطيا ويذل بها ساهيا فالخروج فيها
مرفوع والعتب عليها موضوع لان هفوة الخاطيء هدر ولومه هذر
وقال بعض الحكماء لا تقطع أقالم الأبعد عجز الحيلة عن استصلاحه
وقال الأحنف بن قيس حق الصديق أن تحتل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم
الدالة وظلم الهفوة . وحكى ابن عون أن غلاما هاشميا عريدا على قوم فأراد
عمه أن يسيء به فقال يا عم اني قد أسأت وليس معي عقلي فلا تسيئي ومعدك
عقلك . وقال أبو نواس

لم أؤخذك إذ جنيت لآني * واثق منك بالآخاء الصحيح

بجميل العدو وغير جميل * وقبيح الصديق غير قبيح

فإن تشبه خطؤه بالعدو وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون ما لوما
ولا يلووم بالظن فيصير مذموما ولذلك قيل التثبت نصف العفو . وقال
بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له وقال بعض
شعراء هذيل

فبعض الامر تصلحه ببعض * فان الغث يخمله السمين
 ولا تعجل بظنك قبل خبر * فعند الخبر تنقطع الظنون
 ترى بين الرجال العين فضلا * وفيما أضمروا الفضل المبين
 كلون الماء مشتبهها وليست * تخبر عن مذاقته العيون
 والثاني أن يعتمد ما اجترم من كبائرهِ ويقصد ما اجترح من سيئاتهِ ولا يبالو
 فيما أتاه من أربع أحوال . فالحال الاولى أن يكون موثورا قد قابل على
 وترته وكافأ على مساءته فاللائمة على من وتره عائدة والى البادئ بهاراجعة
 لأن المكافئ أعذر وان كان الصفيح أجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه
 وسلم «اياكم والمشارة فانها تميمت الغيرة وتحبي الغره» . وقال بعض
 الحكماء من فعل ما شاءتني ما لم يشأ . وقال بعض الادباء من نالتني
 اساءتك هممه مساءتك وقال بعض البلغاء من أوقع بفتح المعامله أوجع
 بفتح المقابله . وقال صالح بن عبد القدوس

اذا ورت امرأ فأحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
 ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا
 والاغضاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنبا لانه قد رأى عتبي
 اساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة . وقد قيل باعتبارك الشر
 يعتزلك وبحسن النصفة يكون المواصلون . وقال بعض الحكماء
 من كنت سبب البلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه وقد
 قال أوس بن حجر

اذا كنت لم تعرض عن الجهل والحنأ * أصبت حليما أو أصابك جاهل
 والحال الثانية أن يكون عدا وقد استحكمت شجناؤه واستوعرت سراؤه

واستخسنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء وانتهاز فرصه ويتجبرع
بمهانة العجز من ارة غصصه فاذا ظفر بنائبة ساعدها واذا شاهد نعمة عاندها
فالبعد منه حذرا أسلم والكف عنه متاركة أعظم فانه لا يسلم من عواقب
شره ولا يفلت من غوائل مكره . وقد قالت الحكماء لا تعرضن لعدوك في
دولته فاذا زالت كفت شره . وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال ان
الشر بالشريطة فأذا كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفى أحداهما
الاخري وانما يطفى الخير الشر كما يطفى الماء النار . وقال جعفر بن محمد
كفالك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصى الله فيك . وقال بعض
الحكماء بالسيرة العادلة يقهر المعادي وقال البحري

وأقسم لأجزيك بالشر مثله * كفى بالذي جازيتني لك جازيا

والحال الثالثة أن يكون لثيم الطبع خبيث الاصل قد أغراه لثوم الطبع
على سوء الاعتقاد وبعثه خبيث الاصل على اتيان الفساد فهو لا يستقيم
الشر ولا يكف عن المكره فهذه الحالة أطم لان الاضرار بها أعم ولا
سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفيح
والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح الغنم كالنار المتأججة في
يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك . روى مكحول
عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الناس
كشجرة ذات جنى ربوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم
ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله
وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك » . وقال عبد الله
ابن العباس العاقل الكريم صديق كل أحد الا من ضره والجاهل اللثيم

عدو كل أحد الا من نفعه وقال شرماني الكريم أن يمنعك خبيره وخبير
ما في اللثيم أن يكف عنك شره . وقال بعض البلغاء أعداؤك دأؤك وفي
البعده عنهم شفاؤك . وقال بعض البلغاء شرف الكريم تغافلته عن
اللثيم . ووردى بعض الحكماء ابنه فقتال يابى اذا سلم الناس منك فلا
عليك أن لا تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان . وقال عبد المسيح
ابن زفيلة

الخبير والشرمقرونان في قرن * فالخبير متبع والشرمقرون
والحال الرابعة أن يكون صديقا قد استبدت نبوة وتغيرا أراخا قد استجدت
جنوة وتنسكرا فأبدى صفحة عشوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن
بر الأحاء المحجنوة الأعداء فهذا قد يعرض في المودات المستقيمة كما
تعرض الامراض في الاجسام السليمة فان عوجلت أفلعت وان أهملت
أسقمت ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء دواء المودة كثرة التعاهد وقال
كشاجم

أقل ذا الودعثرته وقفه * على سنن الطوريقى المستقيمة
ولا تسرع عتبه تاييه * فقد يهضم وينتسه ليه
ومن الناس من يرى أن متاركة الأخوان ذانفروا أصح واطراحهم اذا
فسدوا أولى كاعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها أسلم فان شخ بها سرت الى
نفسه وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديده أبجل . وقد قال بعض
الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغرهمة
وقد قال بزرجهر من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته
وقال نصر بن أحمد

صل من دنار تناس من بعدا * لا تسكرهن على الهوى أحدا
قدأ كرت حواء اذولدت * فاذا جف ساو اذ ولدوا

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف أخاؤه وساءت طرائقه وذاقت
خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فتقابل على
الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العتوق
بالعتوق فلا بالفضل أخذ ولا الى العفو أخذ وقد علم أن نفسه قد تطغى
عليه فترديه وأن جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما أخص به
وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بأدواته فيريد من غيره
لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع أن
من لم يحتمل بقي فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا
أعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «أرضاني
ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وأن أعفو عن ظاني وأعطي
من حرمي وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا
ونظري عبرة» . وقال لقمان لابنه يا بني لا تترك صديقك الا اول فلا يطمئن
اليك الثاني يا بني اتخذ ألف صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا
والواحد كثير . وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما تقول في العفو والعقوبة قال
هما نزلة الجود والبخل فتمسك بأيها شئت . وأنشد ثعلب

إذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيلك في ادباره متعلقا

إذا أنت لم تسترك أخاك وزلة * اذا زلها أو شكمتا أن تفرقا

فاذا كان الامر على ما وصفت فن حقوق الصفيح الكشف عن سبب الهفوة

ليعرف الداء فيعالجه فان من لم يعرف الداء لم يقف على الدواء . كما قد
قال المتنبي

فان الجرح ينغر بعد حين * اذا كان البناء على فساد
واذا كان ذلك فلا يتحوّل السبب من أن يكون لملل أو زلل فان كان
لملل فودات الملول ظل الغمام وحلم النيام . وقد قيل في منشور الحكم
لا تأمن لملول وان تحلى بالصلة وعلاجه أن يترك على ملله فيل الجفاء كمال
الانحاء وان كان لزلل لو حظت أسبابه فان كان لها مدخل في التأويل
وشبهة تؤول الى جميل حمله على أجل تأويل وصرفه الى أحسن جهة كالذى
حكى عن خالد بن صفيوان أنه مر به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه
الآخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضلنا وطوانا ذلك بثقتنا بنا
وأناشد بعض أهل الادب لمحمد بن داود الاصفهاني

وزعم اللواشين أى فاسد * عليك وأنى لست فيما عهدتني
وما فسدت لي يعلم الله نية * عليك ولكن خنتني فاتهمتني
غدرت بعهدى عامدا وأخفتني * فخفت ولو آمنتني لأمنتني
وان لم يكن لزلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله
فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب انائب ولا لوم على منيب ولا يكلف
عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل التحريف أو خجل التعنيف ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم «إياكم والمعاذر فان أكثرها مفاجر» . وقال على رضى
الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة . وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه
لا يدعونك أمر قد تخلصت منه الى الدخول في أمر لعلك لا تخاص منه .
وقال بعض الحكماء شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره . وقال بعض

البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب
فحبت إساءته . وقال بعض الحكماء الكريم أوسع المغفرة اذا ضاقت
بالذنب المعذره وقال بعض الشعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب * وليس في غير ما يرضيك لي أرب
وقد أسأت فبالنعمى التي سلفت * الامنت بعفو ماله سبب
وان يحجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة والتنصل
انابه فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر عذره فيكون لثم الظفر
سبي المكافاة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغتر بعودته . وقال بعض
الحكماء شافع الذنب خضوعه الى عذره . وقال بعض الشعراء

اقبل معاذير من يأتبك معتذرا * ان بر عندك فيما قال أو ففرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره * وقد أجلك من يعصيك مستترا
وان ترك نفسه في زلله ولم يتداركه بعذره وتنصله ولا يحاه بتوبته وانابته
راعت حاله في المتاركة فستجده لا ينفك فهمان أمور ثلاثة . أحدها
أن يكون قد كف عن سيئ عمله وأقاع عن سالف زلله فالكف إحدى
التوبتين والاقلاع أحد العذرين فكن أنت المعتذر عنه بصفيحك
والتنصل له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحسن على
المسيء أمير . والثاني أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله غير تارك
ولا مجاوز فوقوف المرض أحد البرئين وكفه عن الزيادة إحدى الحسنين
وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه فعول به على صلاح شطره الآخر
واياك وارجاه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافي يصلح شطر فساده
فان من سقم من جسمه ما لم يبالجه سرى السقم الى صحته وان عاجله سرت

الصحة الى سقمه . والثالث أن يتجاوز مع الاوقات فيزيد فيه على مرور
الايام فهذا هو الداء العضال فان أمكن استدراكه وتأتى استصلاحه وذلك
باستنزاله عنه ان علا وبارغاه ان دنا وبعثابه ان ساوى والافاق خرداء
العياء الكى ومن بلغت به الاعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه
باغ مصروع . وقد قيل من سل سيف البغى أنعمه في رأسه فهذا شرط
وأما المسامحة في الحقوق فلأن الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن
أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح أو طمع لم يصل اليه الا بالمتافرة
والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة لما استقر في الطباع من مقت
من شاقها ونافرها وبعض من شاقها ونازعها كما استقر حجب من ياسرها
وسامحها فكان أليق لامور المروعة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة
وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة
دامت له موداتهم . وقال بعض الادباء اذا أخذت عفو القلوب زكار يعك
وان استقصيت أكديت . والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فاما العقود
فهو أن يكون فيها سهل المناجزة قليل المهاجرة مأمون الغيبة بعيدا من
المكر والخديعة . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « قال أجزوا في
طلب الدنيا فان كلاميسر لما كتب له منها » . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا
أدلكم على شئ يحببه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغاين
للضعيف » . وحكى ابن عون أن عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصرى
ازاربا ستة دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم
ونصف فقال انى اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهما ومن الناس من يرى
أن المساهلة في العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس في

الحقير وان جاديا للجميل الكثير كالذي حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ما كس في درهم وهو يجود بما يجوده فقيل له في ذلك فقال ذلك مالي أجوده وهذا عقلي بخلت به وهذا انما يسوغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الا دنياهم و يغابنهم به الا شعاع وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر فأما كسرة الاستنزال والاستمساخ فكلما لانه مناف للكرم ومباين للمروءة . وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين أحدهما في الاحوال والثاني في الاموال . فاما المسامحة في الاحوال فهي اطراح المنازعة في الرتب وترك المنافسة في التقدم فان مشاحة النفوس فيها أعظم والعناد عليها أكثر فان سماح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الاخلاق واستعماله لاحسن الآداب أوقع في النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو أزيد في رتبته وأبلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لأخسن الاخلاق واستعماله لأهجن الآداب أنكى في النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو أخفض للمرتبة وأمنع من التقدم . حكى أن فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبي داود فقال يا بني ان آداب مسيرات الاشراف ولست أرى عندك من سلفك إرثا . وأما المسامحة في الاموال فتتنوع ثلاثة أنواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف العجز ومسامحة انكار لعسرة وهي مع اختلاف أسبابها تفضل مأثور وتألّف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان أولى أن يجود بما خرج عن يده قطاب نفسا بفراقه وقد تصل المسامحة في الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعا وأزكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدي لان السائل كما اجتريا

على سؤالك فسيجترى على سؤال غـ يرك ان رددته وليس كل من صار أسير
حقك ورهين دينك يجذبدا من مـ محتمك ومياسرتك ثم الك مع ذلك
حسن الثناء وجزيل الاجر . وقال محمود الوراق رحمه الله

المـرء بعد الموت أحدوثه * يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة . وأما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال
استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان أحدهما ما أسداه
جودا في شكور والثاني ما تألف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة
لما فهم ما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياء والاتباع ومن قلت صنائعه
في الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا
محقورا ولا مروءة لمترك مطرح ولا قدر لمحقور مهتمضم . وقال عمر بن
عبد العزيز ما طأوعني الناس على شئ أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا
من الدنيا . وقال بعض الحكماء أقل ما يجب للنعم بحق نعمته أن لا يتوصل
بها الى معصيته . وأنشدت لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يجده * وترك المال لعام جده
* هان على الناس هوان كبه *

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى

يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهـ ردولة ورجال

مانال محمدا الرجال وشكرهم * الالـجواد بماله المفضال

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آله المكارم عمادها

وفقد من شروط المروعة سنادها فليواس بنفسه مواساة المسعف وليسعد
بها السعد المتألف قال المتنبي

* فليسعد النطق ان لم تسعد الحال *

وان كان لا يراها وان أجهدها الاتبع للفضلين قليلة بين الكثيرين فان
الناس لا يساؤون بين المعطى والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا
يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدي ان رتصوا لم يجدن شعاعا كما
قال الشاعر

مجرد بالوعس ولو لكنه * يدهن من قارورة فارغه

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان هينا
وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما أفتنع . وأما افضال الاستكفاف
فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسدا نعمة ومعاندا فضيلة يعتربه الجهل باظهار
عناده ويبعثه الموم على البذاء بسفبه فان غفل عن استكفاف السفهاء
وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة
للنوائب واذا استكف السففيه واستدفع البذي صان عرضه وحى
بعته . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما وقى به المرء عرضه
فهو صدقة » وقالت عائشة رضي الله عنها ذبوا بأموالكم عن أحسابكم
وأمدح رجل الزهري فأعطاها قصصه فقال له رجل أتعطى على كلام
الشیطان فقال من ابتغى الخيراتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم « من أراد بر الوالدین فليعط الشعراء وهذا صحيح لان الشعر سائر يستربه
ما ضمن من مدح أو هجاء ومن أجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فإنه يمدحك
بمن ويهجرك بمجانا . ولا استكفاف السفهاء بالافضال شرطان .

أحدهما أن يخفيه حتى لا تنتشر فيه مطاعم السفهاء فيتوصلوا إلى اجتذابه بسببه وإلى ماله بثلبه . والثاني أن يتطلب له في المجاملة وجهها ويجعله في الأفضال عليه سبباً للتلايرى أنه على السفه واستدامة البذاء . واعلم أنك ما حيت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحياى عنك شقيق فكأن أحسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكوراً وأجرك عند الله مذكوراً .

فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اغتتم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك » . فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المرأة وإن كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم

(الفصل الثامن في آداب منثوره) . اعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل الأحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وإنما يذكر كل إنسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو أمكن ذلك لكان الأول قد أغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وإنما حظ الأخير أن يتعاني حفظ الشارد وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقاً وينفي ما كان مخالفاً ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فإن أسعف بشئ فازيد ركه وحظى بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مؤلفاً من كلام الوقت وعرف أهله فإن لاهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون أوقع في النفوس وأسبغى إلى الأفهام ثم يرتب ذلك على أوائله

ومقدماته ويثبته على أصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العاوم طريقة هي أوضح مسلكا وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الاخير فيما يعانیه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به الأول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا ونرجو الله أن يمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتمهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخطا طئي معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان أحسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف وقدمت أبواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما لأحب الاخلاص به . فمن ذلك حال الانسان في ما كلفه ومشربه فان الداعي الى ذلك شيان حاجة ماسة وشهوة باعثة . فأما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويهجر عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثوابا وأعظم أجرا اذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واثمان القرب ومن أخسر نفسه رجما موفورا أو حرمها أجراما مذخورا كان زهدا في الخير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه وسمعته . وأما الشهوة فتنوع نوعين شهوة في الاكثار والزيادة وشهوة في تناول الالوان الملمدة فأما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية

فهو ممنوع منه في العقل والشرع لان تناول ما زاد على الكفاية نهم معتر وشبه مضر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اياكم والبطننة فانها مفسدة للدين وورثة للسقم مكسلة عن العبادة » . وقال على رضى الله عنه ان كنت بطنافعدت نفسك لزمنا . وقال بعض البلغاء أقلل طعاما تحمدمنا . وقال بعض الادباء الرغب اؤم والنهم شؤم . وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقال بعض الشعراء

فكم من لقمة منعت أحاها * بلذة ساعة أكلات دهر
وكم من طالب يسعى لأمر * وفيه هلاكه لو كان يدري

وقال آخر

كم دخلت أكلة حشائره * فأخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام اذا * كان هلاك النفوس في المعد

ورب أكلة هاضت آكل وحرمتها ما كل . روى أبو يزيد المدنى عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله لم يخلق وعاء على شرامن بطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشرب وثلثا للريح . وأما النوع الثانى وهو شهوة الاشياء الملوذة ومنازعة النفوس الى طلب الانواع الشهية فذاهب الناس فى تمكين النفس منها مختلفه فمنهم من يرى أن صرف النفس عنها أولى وقفه رها عن اتباع شهواتها أخرى ليدل له قيادها ويهون عليه عنادها لأن تمكينها

(١) لفظ الحديث المشهور ماملا آدمى وعاء شرامن بطنه بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه رواه أحمد وابن ماجه والترمذى من المقدم بن معديكر بن قال الحاكم صحيح وانظر المناوى على الجامع كتبه مصححه

وما تهوى بطريقى وأشهر ردى لان شهواتها غير متناهية فاذا أعطاهما
المراد من شهوات وقتها تعدت الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان
أسير شهوات لا تنقضى وعنده هوى لا ينتهى ومن كان به هذه الحال لم يرج
له صلاح ولم يوجد فيه فضل . وأنشدت لابي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمة * لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فأنت بالنفس لا بالجسم انسان
ولكن من هذه الحال ما حكى أن أباحم رحمه الله كان يمر على الفاكهة
فيشتتها فيقول موعداً الجنة . وقال آخر تكين النفس من لذاتها
أولى واعطاؤها ما اشتهدت من المباحات أخرى لما فيه من ارتياح النفس
ببئس شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر عن مآذلة المقهور وبلاذة
المجبور ولا تقصر عن درك ولا تعصى في نهضة ولا تنكح عن استعانة .
وقال آخرون بل توسط الامرين أولى لان في اعطائها كل شهواتها بلاذة
والنفس البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفي
تسكينها من البعض حسم لها عن البلاذة وهذا امرى أشبه المذاهب
بالسلام لان التوسط في الامور أحمد * واذ قد مضى الكلام في المأكول
والمشروب فينبغى أن يتبع بذكر الملبوس

اعلم أن الحاجة وان كانت في المأكول والمشروب أدعى فهي الى الملبوس ماسة
وبها اليه فاقه لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الاذى وستر العورة وحصول
الزينة . قال الله تعالى «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواكم وريشا
ولباس التقوى ذلك خير» فعنى قوله أنزلنا عليكم لباسا أى خلقنا لكم ما تلبسون
من الثياب يوارى سواكم أى يستر عوراتكم وسميت العورة سوءة لانه

يسوء صاحبها انكشافها من جسده . وقوله وريشافيه أربعة تأويلات .
أحدها أنه المال وهو قول مجاهد . والثاني أنه اللباس والعيش والنعيم
وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما . والثالث أنه المعاش وهو قول معبد
الجهني . والرابع أنه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس
التقوى فيه ستة تأويلات . أحدها أن لباس التقوى هو الايمان
وهو قول قتادة والسدي . والثاني أنه العمل الصالح وهو قول ابن عباس
رضي الله عنهما . والثالث أنه السميت الحسن وهو قول عثمان بن عفان
رضي الله عنه . والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير .
والخامس أنه الحياء وهذا قول معبد الجهني . والسادس هو ستر العورة
وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ذلك خير فيه تأويلان . أحدهما
أن ذلك راجع الى جميع ما تقدم من قوله قد أنزلنا عليكم لباسا يواري
سواكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أي ذلك الذي ذكرته خير
كله . والثاني أن ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام وان لباس
التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدي فلما وصف الله
تعالى حال اللباس وأخرجه مخرج الامتنان علم أنه معونة منه لشدة الحاجة
اليه واذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة أشياء . أحدها دفع الاذى
والثاني ستر العورة . والثالث الجمال والزينة . فأما دفع الاذى فهو واجب
بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى
. والله جعل لكم ما خلق تلالوا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم
سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم » فأخبر بحالها ولم يأمر بها
اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعني بالظلال

الشجر وبالأكنان جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعنى بقوله سراييل تقيمكم الحسرتياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسراييل تقيمكم بأسكم الدروع التي تقي البأس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيمكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال أكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب حردون برد فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء . والجواب الثاني أن كنفاعنا ذكر أحدهما عن ذكر الآخر إذ كان معلوماً أن السراييل التي تقي الحر أيضاً تقي البرد ومن اتخذ من الجبال أكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور . وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحاً فالعقل مانع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلتا من الشجرة التي نهيا عنهما بدت لهما سواتهما وطفعا فأنجصفاً علم ما من ورق الجنة تنبها بقولهما لستر ما رأياه مستقبحا من سواتهما لأنهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبد لهما ولا كلفاه بعد أن بدت لهما وقبل سترها . وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لأنه بعض الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقيه وإنما اختلفت العورة بحكم شرعي فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكماً شرعياً وقد كانت قريش وأكثرا العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الألباب يطوفون بالبيت عمارة ويحترمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك أبلغ في القرية وإنما القرب ما استحسنت في العقل حتى أنزل الله تعالى «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكواوا شربوا ولا تسرفوا أنه

لا يحب المسرفين : يعنى بقوله خذوا زينتكم التي استبرعوا واتكفوا
وكاوا واشربوا ما حرمتموه على أنفسكم من الخمر والولد وفي قوله تعالى
ولا تسرفوا تأويلان . أحدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا قول
السدى . والثاني لا تأكلوا حراما فإنداسراف وهذا قول ابن زيد فأرجب
بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل مرجحاً له فدل ذلك على أن
سترها واجب بالشرع دون العقل . وأما الجمال والزينة فهو مستحسن
بالعرف والعادة من غير أن يوجب عقل أو شرع وفي هذا النوع قد يقع
التجاوز والتقدير . والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين أحدهما
في صفة الملبوس وكيفيةه والثاني في جنسه وقيمه . فالما صفة
معتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فان لأهل المشرق زيا
مألوفاً ولأهل المغرب زيامألوفاً وكذلك ما بينهما من البلاد المختلفة عادات
في اللباس مختلفة والثاني عرف الاجناس فان للاجناس زيا
مألوفاً والتجار زيامألوفاً وكذلك من سواهما من الاجناس المختلفة عادات
في اللباس وإنما اختلفت عادات الناس في اللباس من هذين الوجهين
ليكون اختلافهم سمة يميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل أحد
عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقاً وحقاً ولذلك قيل العرى الفادح
خير من الزى الفاضح . وأما جنس الملبوس وقيمه فمعتبر من وجهين
أحدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر في الزى قدراً والمعسر دونه
والثاني بالمنزلة والحال فان اذى المنزلة الرفيعة في الزى قدراً وللنخف
عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل أحوالهم فيصه وابه منيزين فان
عدل الموسر الى زى المعسر كان شحاً ومخلاً وان عدل الرفيع الى زى

الدينىء كان مهانة وذلًا وان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبيذرا وسرفا
وان عدل الدينىء الى زى الرفيع كان جهلا وحقا ولزوم العرف المعهود
واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمنع من الازم ولذلك قال عمر بن
الخطاب رضى الله عنه إياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة . وقال
بعض الحكماء البس من الثياب ما لا يزيدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك
الحكماء . وقال بعض الشعراء

ان العيون رمتك انفاجاتها * وعليك من شهر الثياب لباس
أما الطعام فكل لنفسك ماتشا * واجعل لباسك ما اشتهاه الناس
واعلم أن المروعة أن يكون الانسان معتدل الحال فى مراعاة لباسه من غير
اكثر ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل
وكثرة مراعاتها ووصرف الهمة الى العناية لها دناءة ونقص وربما توهم
بعض من خلا من فضل وعري عن تمييز أن ذلك هو المروعة الكاملة والسيرة
الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام
المستردلين وخفى عليه أنه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكره
وأبعث على ذمه فكان كما قال المتنبي

لا تعجبين مضميا حسن برته * وهل يروق دفيننا جودة الكفن

وحكى المبرد أن رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرث ثيابه واذا
ضاق لبس أحسنها فقييل له فى ذلك فقال اذا اتسعت ترينت بالجوود
واذا ضقت فبالهيئة . وقد أتى ابن الرومى بأبلغ من هذا المعنى فى شعره
فقال

وما الخلى الا زينة لتفصيصة * يتم من حسن اذا الحسن قصيرا
فاما اذا كان الجمال موفرا * كحسنك لم يحتج الى ان يزورا
وانهك قالت الحكمة ليست اعز في حسن ابره . وقال بعض شعراء
وترى سفينة القوم يدنس عرضه * سفنها وجمع نعله وشرا كنها
واذا اشتد كلفه مراعاة لباسه قطعته ذلك عن مراعاة نفسه وصار اللبس
عنده أنفوس وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل في منشور الحكم البس
من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك . وقال خالدين صفوان لا بأس من
معاوية أرك لا تبالى ما لبست فقار البس توب ألقى به نفسى أحب الى من
توب أقيه بنفسى فكما أنه لا يكون شديدا الكف بها فكذلك لا يكون
شديدا الاطراح لها فقد حكى عن عائشة أن رجلا جاء الى النبي صلى الله
عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال ما مالك قال من كل المال قد آتاني الله
فقال ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر الى أثرها عليه .
وقد قيل المروءة الظاهرة في الثياب العاهرة وهكذا القول في غلبته
وحسنه ان اشتد كلفهم صار عليهم قيدا ولهم خادما وان اطرحهم قل
رشادهم وظهور فسادهم فصاروا سببا لقتله وظريفقا لذمه . لكن يكفهم
عن حى الاتمزيق واخذهم أحسن الآداب ليذكروا كما قال فيهم الشاعر
سهل الغناء اذا مررت ببابه * طلق اليمين مؤدب الخدام
ولكن في تفقد أحوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون مبتدله . فقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اذهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا
تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى محالكم فانه أكتب بعدوكم »
وليتوسط فيهم ما بين حالة اللين والحشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن

مقتوه وكان على خطر منهم . حكى أن الموبذ سمع ضحك الخدم في مجلس
أنوشروان فقال أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال أنوشروان انما بهم هم يهابنا
أعداؤنا وقال أبو تمام الطائي

حنم الصديق عيونهم بحائنه * لصديقه عن صدقه ونفاقه

فليظن المرء من غلمانه * فهم خلائفه على أخلاقه

واعلم أن النفس طالبت حالة استراحة ان حرمتها اياها كالت وحالة تصرف
ان أرحتها فيها تخلت فالاولى بالانسان تقدير حاله حال نومه ودعته وحال
تصرفه ويقظته فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضرب بالنفس
بجاوزة أحدهما وتغير زمانهما . فتدروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال « نومة الضحى معجزة منفضة مكسلة مورمة منسأة للحاجة » . وقال
عبدالله بن عباس رضى الله عنهما النوم ثلاثة نوم خرق وهى الضحية ونوم
خلق وهى العائلة ونوم حق وهو العشى وقد روى محمد بن يزدان عن
ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم
الضحى خرق والقبولة خلق ونوم العشى حق . وقيل فى منشور الحكم
من لزم الرقاد عدم المراد فاذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة
واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خاص بالاستراحة من عجزها وكلالها
وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها . وحكى أن عبدالمالك بن عمر بن عبد العزيز
دخل على أبيه فوجده ناعما فقال يا أبت أتنام والناس بالباب فقال يا بنى
نفسى مطبى وأكرم أن أتعبها فلا تقومى وينبغى أن يقسم حاله تصرفه
ويقظته على المهيم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن
استيعاب المهيم فكيف به ان تجاوز الى ما ليس بهم هل يكون الا

كثارة كذبها بالاعراء * ومليسة ببيض أخرى جنباً
ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره فان الليل أخطر للخاطر
وأجمع للفكر فان كان محموداً مضاه وأتبعه بما شاكاه وضاهاه وان كان
مذموماً استدركه ان أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك
وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال . اما أن يكون قد أصاب فيها
الغرض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها أو يكون
قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت
محدودها وهذا التصريح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم
به مواقع الاصابة وينتبه به استدراك الخطا وقد قيل من كثرة اعتباره قل
عشاره وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما
كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو
الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجدده من غيره أو أعجبه بجيل
من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدى
بأحسنها وانتهى عن سيئها . وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال «السعيد من وعظ بغيره» . وقال الشاعر
ان السعيد له من غيره عظة * وفي التجارب تحكيم ومعتبر
وأنتدني بعض أهل العلم لطاهر بن الحسن

اذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمات * اذا جئت ما حاجب يحجبك

فأما ما يرومه من أعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم
الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجا فيه أغلب من الاياس منه وجدت

العاقبة فيه سلكه من أسهل مطالبه وألطف جهاته وبقدرة شرفه يكون
 الاقدام وان كان الاياس أغلب عليه من الرجاء مع شدة التغير ونداء الامر
 المطلوب فليحذر أن يكون له متعرضا . فقد روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم أنه قال « اذا هممت بأمر ففكر في عاقبته فان كان رشدا أقامضه وان
 كان غيا فانتعه عنه » . وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز . وقال
 بعض الشعراء

فأياك والامر الذي ان توسعت * موارد ضاقت عليك المصادر
 فأحسن أن يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر الناس عاذر
 وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفي كل وقت من أوقات دهره عملا
 فان تخلق في كبره باخلاق الصغر وتعاطى أفعال الغكاهة والبطر
 استصغره من هو أصغر وحقره من هو أقل وأحققر وكان كالمثل
 المضروب بقول الشاعر

وكل بازيمه هرم * تخرا على رأسه العصافير
 فكن أيها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك
 جاري على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحذرا على من قدمك
 الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم
 فيعادوك فانه لا عيش لمقوت ولا راحة لمعادى . وأنشد بعض أهل
 الادب لبعضهم

اذا اجتمع الناس في واحد * وخالفهم في الرضا واحد
 فقد دل اجاعهم دونه * على عقله أنه فاسد
 واجعل نصيح نفسك غنمة عقلك ولا تدهنها باخفاء عيبك واطهار

عذرک فيصير عدوك أخطى منك في زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من
 نفسك التي هي أخص بك لا غرائك لها باعدارك ومساءتك فسيبك سوءاً
 وجل ينفع عدوه ويضر نفسه . وقال بعض الحكماء أصل نفسك
 لنفسك يكن الناس تبعالك . وقال بعض البلغاء من أصل نفسك أرغم
 أنف أعاديه ومن أعمال جده بلغ كنهه أمانيه . وقال بعض الأدباء من
 عرف معابه فلا يلزم من عابه وأنشدني أبو نابت النخوي لبعض الشعراء
 ومصروفة عينا من عن عيب نفسه ❖ ولوبان عيب من أخيه لأبصرا
 ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه ❖ لأمسك عن عيب الصديق وقصرا
 فهـذب أيها الانسان نفسك بافتكار عيوبك وانفعها كنفعك لعدوك
 فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواظ على أعاننا الله وإياك على
 القول بالعمل وعلى النصيح بالقبول وحسبنا الله وكفى

بمحمد بن بين الرشد من الغنى ولم يفرط في الكتاب من شيء
تم كتاب أدب الدنيا والدين للعلامة أبي الحسن علي الماوردي البصري
بمجة المحققين وهما الكتاب الجامع لفرائد آداب الغنى بشهرته عن
المدح والاطناب الجدير بنشر عرفه على عموم البرية لتتعلق بما فيه من
الاخلاق المرضية ولذا رغبت نظارة المعارف العمومية اعادته طبعه
(بعد تصحيحه مع بعض اختصار بعرفة حضرتي عبد الجواد أفندي
عبد المتعال وعبد الله أفندي الانصاري ثم تصديق صاحب الفضيلة العلامة
الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بنظارة المعارف العمومية) بحجة
لعموم نفعه بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية في ظل من
ازدهت به المعارف ورفل في ظلال رياضها كل لبيب عارف حاجي حي
الديار المصرية ونجبة سلاله العائلة المحمدية الذي ليس له في معاليه مداني
﴿أفندينا عباس باشا حلمي الثاني﴾. لازالت ألوية المعارف بحسن التفاته
منشوره ومساعدته الخيرية في رفع منار العوارف مشكوره مالا يحدر
التمام وفاح مسلك الختام وذلك في سنة ألف وثلثمائة وأربع وعشرين
من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية